سلسلة المائة كتاب

الاسطورة والمعنى

كلود ليفي شتراوس

ترجمة وتقديم د. شاكر عبدالحميد

مراجعة: د. عزيز حمزة



١٩٨٦



تصدر عن
دار الشؤون الثقافية العامة

العنوان
أعظمية - ص . ب ٤٠٣٢ تلكس ٢١٤١٣٥
العنوان البرقي فاق تلفون ٤٤٣٦٠٤٤
بغداد - العراق



الاسطورة والمعنى

تأليف

كلود ليفي شتراوس

ترجمة وتقديم

د . شاكر عبدالحميد

الطبعة الاولى بغداد ـ ١٩٨٦ .



مقدمة حول الاسطورة والتشاكل لدى ليڤي شتراوس

بقلم : المترجم

يحتل مفهوم الأسطورة مركز الصدارة في هذا الكتاب الصغير كما هو الحال في أغلب أعمال ليڤي شتراوس ان لم يكن كلها ، فيحاول ليڤي شتراوس ان يحدد علاقة الأسطورة بالعلم ، وعلاقتها بالتاريخ ، وعلاقتها بالموسيقى واللغة ، وموقعها في سياق النسق الكلي للفكر الانساني . لقد كان لهذا المفهوم ومازال سحره الخاص وجاذبيته في أعمال ليڤي شتراوس خاصة في الانثروبولوجيا البنيوية و « الفكر البري » و « الطوطمية » و « الاسطوريات » وغيرها . لذلك يقتضينا الموقف أن نقف وقفة خاصة عند هذا المفهوم والمفاهيم المرتبطة به في بنيوية ليڤي ـ شتراوس الانثروبولوجية . ان الاسطورة عند ليڤي شتراوس تشير دائما الى وقائع يزعم أنها حدثت منذ زمن بعيد لكن ما يعطي الاسطورة قيمتها العملية هو أن النمط الخاص الذي تصفه يكون غير ذي زمن محدد ، انها تفسر الحاضر والماضي وكذلك المستقبل [1] .

ان الاسطورة تشتمل على الزمن القابل للاعادة وأيضا الزمن غير القابل للاعادة irreversable ، ولغتها لها خصائص التزامن والتتابع التي اكدها دي سوسير . ان زمن الاسطورة يمكن تمثيله في ضوء ذلك كما ياتي : الزمن القابل للاعادة = الزمن البنيوي = اللغة = التزامن الزمن غير القابل للاعادة = الزمن الاحصائي = الكلام = التتابع . والاسطورة تشتمل على هذين الزمنين وتتضمن هاتين الخاصيتين المتعارضتين فكل اسطورة يمكن أن يوجد زمنها الخاص على بعد التزامن ـ التتابع ، ومن ثم فهي تمتلك خاصية اللغة (التزامن) وخاصية الكلام (التتابع) والاسطورة هنا شبيهة في رأي ليڤي شتراوس بالمدونة الموسيقية عندما تتمّ قراءتها بشكل متأنٍ : من خلال التتابع (من الشمال الى اليمين وصفحة وراء الاخرى) ومن خلال التزامن (من أعلى الى أسفل) [2] .

إضافة الى ما سبق يؤكد ليڤي شتراوس أن الاسطورة تشتمل على مرجع زمني ثالث يضم خصائص الزمنين السابقين (التزامني أو المتأني والتتابعي أو

المتتالي) ، فالاسطورة تشير دائما الى وقائع يزعم أنها حدثت منذ زمن بعيد ، لكن النمط الذي تصفه يكون بلا زمن Timeless ، فهو يفسر الحاضر والماضي وكذلك المستقبل ، وجوهر الاسطورة لا يكمن في اسلوبها أو موسيقاها أو في بنيتها ولكن في القصة التي تحكيها ، فالاسطورة لغة يتم تنشيطها عند مستوى مرتفع بشكل خاص وتتابع فيه المعاني بشكل يجعل الخلفية اللغوية لها في حالة حركة دائما . [٣]
ويؤكد ليفي شتراوس دائما أن تحليل الاسطورة يتجاوز تحليل مسمياتها أو مضمونها أو حدودها ، وانه يركز على الكشف عن العلاقات التي توجد بين كل الاساطير ، ولقد أصبحت هذه العلاقات موضوعات أساسية في تحليله البنيوي الذي استهدف الكشف عن الأبنية الموحدة لهذه الأساطير ، وهو يرى ان هذه الابنية الموحدة تتجلى خلال عملية تحليل الأسطورة ، بالكيفية التي ينبثق بها الفكر اللاواعي في الوعي ، خلال عملية التحليل النفسي ، ولذلك يغدو الكشف عن هذه الأبنية نوعا من أنواع التحليل النفسي الثقافي [٤] .

لقد جمع ليفي شتراوس في كتابه « اسطوريات » حوالي ٥٢٨ قصة من أماكن متباعدة من امريكا والمناطق المدارية ، ورغم ان هذه الاساطير تنتمي الى انساق اسطورية عديدة فانها مترابطة ، بل ويمكن اعتبارها جسدا واحدا . والروابط الداخلية بين الاساطير ذات أهمية كبيرة ، انها علاقات منطقية تم تكوينها بين وحدات مكونة لقصص مختلفة ، وقد استخدم ليفي شتراوس بعض المصطلحات لوصف هذه العلاقات بين الوحدات الاسطورية مثل التماثل والعكس والتكافؤ والوحدة والتطابق والتشاكل وغيرها . ان الاساطير قد تزود الانسان بصورة كلية عن العالم الذي يعيش فيه او كما يقول مالينوفسكي تزوده بصكوك للنشاط الاجتماعي ، أو كما يقول ليفي شتراوس بنماذج منطقية تكون قادرة على قهر التناقضات التي يواجهها في الواقع [٥] ، ويلخص ليفي شتراوس بعض آرائه عن الاسطورة في النقاط التالية :

١ـ اذا كان هناك معنى موجود في الميثولوجيا فانه لا يكمن في العناصر المنعزلة التي

تـدخل في تكـوين الاسطورة ، ولكن في الطريقـة التي يتم بها تـركيب هـذه العناصر .

٢ ـ رغم ان الاسطورة تنتمي الى نفس الفئة التي تنتمي اليها اللغة ، فان اللغة في حقيقـة الأمر تكـون جزءا فقـط منها ، واللغـة في الاسطورة تـظهر بعض الخصائص النوعية الخاصة .

٣ ـ هذه الخصائص النوعية يمكن ان توجد فقط فوق المستوى اللغوي المعتاد ، أي أنها تكشف عن ملامح أكثر تعقيداً من تلك التي يمكن أن توجد في أي نوع آخر من التعبير اللغوي .

واذا وضعنا ما سبق في الاعتبار كفروض عاملة في الأقل ـ كما يقول ليفي شتراوس فان نتيجتين سوف تظهران هما :

١ ـ أن الاسطورة ـ مثل بقية مظاهر اللغة ـ تتشكل من وحدات مكّونة constituent units .

٢ ـ ان هذه الوحدات المكونة تقتضي ضمنا الوحدات الأخرى المكونة الموجودة في اللغة عندما يتم تحليلها الى وحداتها المكونة كالفونيم والمورفيم وغيرها ولكنها مع ذلك تختلف من ناحية اخرى فيما بينها ، انها تنتمي الى نظام أعلى وأكثر تعقيدا ولذلك تتم تسميتها بالوحدات المكونة الكبرى gross constituent units ، هذه الوحدات لا يمكن أن توجد عند مستوى الصوت أو مستوى الكلمة ، لكنها توجد عند مستوى الجملة ، وعلى الباحث ، كما يقول شتراوس ، أن يتقدم بطريقة اختبارية ، بالمحاولة والخطأ مستعينا بالمبادىء الضرورية لأي تحليل بنيوي وهي : الاقتصاد في التفسير ووحدة الحل ، والقدرة على اعادة تكوين الكل من الاجزاء وكذلك الوصول للمراحل اللاحقة من المراحل السابقة وغير ذلك من المبادىء .

ويقوم منهج التحليل هنا بشكل خاص على تحليل قصة الاسطورة الى اقصر جمل ممكنة فيها ، ثم كتابة كل جملة على بطاقة فهرسة index card تحمل رقما يتفق مع ما يتم فَضُه او كشف أسراره داخل القصة ، وفي واقع الأمر ـ

كما يقول ليفي شتراوس ـ فان كل بطاقة سوف تظهر أن وظيفة معينة في وقت معين مرتبطة بفاعل معين ، أو بعبارة أخرى ، ان كل وحدة مكونة سوف تقوم بتكوين علاقة ما مع غيرها ، والوحدات الكبيرة المكونة للاسطورة ليست هي العلاقات المنعزلة ولكنها حزم bundles هذه العلاقات ، المشتركة وهذه الحزم فقط هي التي يمكن استخدامها ويمكن تركيبها أو دمجها معا من أجل استخلاص المعنى ، وكما يتم تسجيل المادة التي ستجري عليها العمليات بالحاسب الآلي (الكومبيوتر) وتجهيزها على صفحات خاصة للبيانات Data sheet ، تتكون من مجموعة من الصفوف raws الافقية والاعمدة columns الرأسية ، كذلك تتم نفس الاجراءات في تحليلات ليفي شتراوس البنيوية للاسطورة حيث يستخدم الصفوف أو الخانات الافقية لتسجيل الجانب التتابعي من الاسطورة بينما يسجل الجانب التزامني منها على الاعمدة الرأسية ، وكل وحدة مكونة موجودة على بطاقة تأخذ رقما معينا قد يتكرر اذا تكررت الوظيفة ولتكن هذه الارقام مثلا : ١،٢،٤،٧،٨،٢،٣،٤،٦،٨،١،٤،٥،.... الخ . فان دور المحلل بعد تقطيع القصة الى وحدات كبيرة أو جمل ووضعها على البطاقات ان يعيد ترتيبها وتنظيمها بحيث توضع البطاقات التي تشترك في الرقم (١) معا والتي تشترك في الرقم (٢) معا وهكذا من خلال عمليات فرز وتصنيف للجمل الكبيرة المكونة للاسطورة ومن خلال النظر الى هذه الدرجات كما لو كانت درجات مدونة موسيقية اوركسترالية غير مرتبة وغير متسلسلة وتحتاج منا الى ترتيبها بطريقة صحيحة ، ثم من خلال فحص العلاقات المختلفة المميزة الموجودة في الأعمدة والصفوف (الافقي والرأسي) ، أي من خلال فحص العلاقات الافقية والرأسية ، ومن أعلى الى أسفل يستطيع المحلل اكتشاف العديد من العلاقات الهامة [٦] خلال العدد الكبير من الاساطير الذي قام ليفي شتراوس بدراسته في كتابه اسطوريات بأجزائه الثلاثة ، والتي بلغ عددها

٥٢٨ أسطورة كانت الاسطورة رقم (١) المسماة أسطورة البورورو هي الاسطورة المفتاح ، وقد اختيرت لانها الاكثر قدما والاكثر بساطة والاكثر اكتمالا من غيرها ، انها - بشكل يزيد او يقل - عبارة عن تحويل Transformation للأساطير الاخرى التي نشأت اما في المجتمع نفسه او في مجتمعات مجاورة أو مجتمعات بعيدة . وتحليل الاساطير يتحرك بشكل افقي ، الى الاسطورة المشابهة لها وليس بشكل رأسي (اي من الاسطورة السابقة الى الاسطورة اللاحقة) المشترك لهذه الشبكات من العلاقات كما يقول ماكوي J. Maquet قد يعبر عنه من خلال كلمة « التشاكل »isomorphism (أو وحدة الشكل) والتعريف القاموسي للتشاكل هو بالمعنى المنطقي - التشابه في الشكل، وبالمعنى الرياضي يشير الى الاتفاق بين كل عنصر وعنصر آخر داخل احدى المصفوفات الرياضية ، وقد يكون من المفيد القيام بالمقارنة بين العلاقات التشاكلية والعلاقات الرمزية للاساطير لكننا يجب ان نكون على وعي بأن العلاقات التشاكلية لا تشبه العلاقات الرمزية في انها لا تتقدم من الهويات المحسوسة الى الافكار المجردة أو من « الاقل معرفة » الى « الأحسن معرفة » (كما هو الحال في العلاقات الرمزية) بل تظل - هذه العلاقات - عند المستوى نفسه من التجريد والعيانية ، ان التشاكل يكشف عن اشياء أقل من الرمزية في الأقل لانه يخبرنا باشياء أقل عن الأساطير نفسها ، لكن من خلال الروابط التشاكلية يمكن ايجاد العلاقات بين مئات الحكايات ، سواء كانت علاقات بين بنية متماثلة او متطابقة ، ان معرفة العلاقات التشاكلية (بين الاساطير من حيث اشكالها) والعلاقات الرمزية (بين الاساطير من حيث معناها) هو أمر شديد الاهمية .[٧]

ان مفهوم التشاكل كمفهوم محوري لدى ليفي شتراوس لا يقتصر دوره على اكتشاف العلاقات التشاكلية بين الأساطير او داخل الأسطورة الواحدة ، بل يمتد به ليفي شتراوس ليحاول من خلاله ايجاد علاقة بين العقل المتحضر والعقل البري

او البدائي ، هذه علاقة يمتد بها ليفي شتراوس حين يقارن بين عمل العقل الانساني بوجه عام وعمل الآليات الحاسبة الالكترونية الحديثة التي تعمل من خلال انظمة ثنائية متعارضة خاصة النظام الثنائي المسمى Binary system ، (والتشاكل بين الانظمة العقلية الانسانية والانظمة العقلية الآلية هو تشاكل يمتد ليشمل أيضا العمليات الطبيعية التي تشتمل على العديد من مظاهر الخفاء والتجلي ، البوح والكتمان الفيض والكُمون ، وقد كان هذا واضحا بشكل خاص في تحليله لاسطورة ريح الشمال و « سمك الورنك » او السَفَنّ ، المعروضة في الفصل الثالث من هذا الكتاب ، إن جذور مفهوم التشاكل تمتد في الطبقات التاريخية في علم النفس والفسيولوجيا اكثر من امتدادها في طبقات الانثروبولوجيا ، وليفي شتراوس لاينفي هذا بل يؤكده ، فمنذ نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين كانت هناك دراسات عديدة ومستفيضة حول هذا المفهوم ، لقد اهتم به هيرنج في دراساته المبكرة عن رؤية الالوان واهتم به موللر ايضا سنة ١٨٩٦ وماخ وغيرهم ، وفي كتابه « علم نفس الجشطلت » سنة ١٩٢٠ صاغ كوهلر مفهومه عن التشاكل بقوله « ان أي شعور حقيقي هو في كل حالة ليس نسخة عمياء من العمليات الفسيولوجية المتفقة معه ، لكنه يكون وثيق الصلة بها خاصة في الخصائص البنائية الجوهرية » فالتشاكل كما يقول كوهلر كمصطلح يستخدم للاشارة الى التساوي في الشكل يطرح الافتراض الجسور القائل بان حركة الذرات والجزيئيات في المخ ليست مختلفة جوهريا عن الافكار والمشاعر ، لكنها في جوانبها الكتلية الكبيرة تعتبر متطابقة ، ان مبدأ التشاكل كما يقول كوفكا سنة ١٩٣٥ يقوم على اساس اعتبار أن الخصائص المميزة للعمليات الفسيولوجية هي نفسها الخصائص المميزة للعمليات النفسية الشعورية المتفقة معها [٨] ان النظرية الجشطلتيه الخاصة بالتشاكل تحاول أن تدمج بطريقة علمية الملاحظة الشائعة القائلة باننا نستدعي أو نتذكر حركات الرقص الحزينة ليس بسبب اننا شاهدنا أغلب الاشخاص الحزانى يتعرفون بطريقة مماثلة في هذا الموقف ولكن بسبب أن

الملامح الدينامية للحزن تكون موجودة بدنيا أو فيزيقيا في هذه الحركات ويمكن ادراكها بسهولة ، وفي مجال الفن ذكر لانجفيلد نقلا عن بوي H . B . Bouie أنه من الملامح المميزة للتصوير الياباني قوة ضربات الفرشاة ، فعند تمثيل أي موضوع يوحى بالقوة مثل منقار الصقر او مخالب النمر او جذع الشجرة فانه في هذه اللحظة التي تستخدم فيها الفرشاة يجب ان يستثار الاحساس بالقوة ويتم الشعور به لدى الفنان ومن ثم ينتقل الى الموضوع الذي يقوم بتصويره [9] أن التأكيد هنا على ضرورة حدوث تشاكل بين الحالة الداخلية للفنان والحالة الخارجية للمنتج الفني ، وهو تشاكل قد لا يحدث في حالات كثيرة ليس هذا موضوع تفصيلها ، وطالما تعرضت نظرية الجشطلت للنقد من خلال استخدامها المرآوى لهذا المفهوم ، يستفيد ليفي شتراوس اذن بمفهوم التشاكل من نظرية الجشطلت ويحاول ـ كما قلنا ـ اظهاره فيما بين العمليات الطبيعية (حركات الرياح مثلا) والعمليات العقلية الانسانية (بدائية كانت او متحضرة) وكذلك العمليات الآلية للحاسبات الالكترونية ، يستفيد ليفي شتراوس بهذا المفهوم ، كما يستفيد ايضا ، بل يستعير كما يقول روسي Rossi من المدرسة الجشطلتية فكرتين مرتبطتين هامتين اخريين في الأقل ، الاولى خاصة باسبقية الكل على أجزائه ، والثانية خاصة بالشكل التكاملي او العلائقي relational للتفسير [10] ، لقد اكدت النظرية الجشطلتيه لدى فرتهيمر وكوهلر وكوفكا ، كاتجاه معارض للنظرة التحليلة التجزيئيه التي سادت لدى فونت ـ مؤسس علم النفس التجريبي الحديث ـ وأتباعه وأيضا لدى المدرسة الترابطية ـ التي أفرزت السلوكية بعد ذلك ـ أن الخبرة والادراك والتعلم والابداع والتفاعل الاجتماعي وغيرها من مظاهر النشاط الانساني هي كليات ، والكل أكبر من مجموع الاجزاء المكونة له ، ومبدأ « موس » Mous القائل بأن « وحدة الكل أكثر واقعية من كل أجزائه » يؤكده ايضا ليفي شتراوس في منظوره الكلي ، الذي اعلن انه مشتق من اللغويات البنائية عند تروبتسكوي جاكوبسون ـ وفي « الابنية الاولية للقرابة » يقرر ليفي شتراوس

ان المؤسسات الانسانية هي أيضا أبنية يكون الكل الخاص بها ، أي المبدأ المنظم لها ، سابقا على الاجزاء .

لقد تأثر ليڤي شتراوس بروسو وماركس ودوركايم وفرويد وعلم السبرنطيقا ودراسات اللغة وعلم البيولوجيا والوراثة والموسيقى وعلم الجيولوجيا ، كما تأثر بنظرية الجشطلت ونظرية المجال عند كيرت ليفين وبعديد من النظريات الطبيعية ، وكما يقول « روسي » فان ليڤي شتراوس لم يتبنَّ المنظور الجشطلتي فقط بل قام بتوسيع مجالاته ايضا ، لقد اتهم الجشطلتيون بالابنية الخاصة بعملية الادراك ، أي بمحاولة تفهم الخصائص العلائقية التي تدرك على انها كليات منظمة من خلال التنظيم العصبي للمخ ، وبدلا من ذلك فقد اهتم ليڤي شتراوس بالابنية المنطقية ، فكل الاشكال المختلفة للتبادل (أو المقايضة) reciprocity لها نفس الجذور السيكولوجية والمنطقية ويمكن ان نفهم في ضوء بعض الابنية الاساسية الخاصة بالعقل الانساني ، ومن التنميطات الخاصة بالمخ Brain تحرك ليڤي شتراوس الى « تنميطات العقل » Mind ، ان الانسان يفكر في العلاقات البيولوجية على انها انساق متقابلة او متعارضة بين هؤلاء الذين يملكلون (الرجال مثلا) وهؤلاء اللاتي يتم امتلاكهن (النساء) ، بين الزوجات اللائي يُكتسبن أو يُوخذن ، وبين البنات اللائي يتم اعطاؤهن للآخرين كزوجات مثلا ، وبالنسبة لشتراوس فان الثنائية والتبادل والتماثل والتعارض هي المادة المباشرة للواقع الاجتماعي والعقلي والتي يجب ان تكون نقطة البداية لاية محاولة للتفسير ، فالاشياء المتعارضة يتم تنظيمها في أزواج تسمح بظهور الابنية التبادلية ، وفهم العلاقات المتقابلة او المتعارضة ـ لدى شتراوس ـ هو نشاط عقلي لا شعوري ، بمعنى آخر أن العقل يكون موجها من خلال منطق داخلي كامن في لا شعوره النشط ومن خلال حاجة لاشباع قوانين التماثل والتعارض ، ان القانون المركزي لدى ليڤي شتراوس ـ كما يؤكد روسي ـ هو أن العقل الانساني اللاشعوري يدرك العلاقات بين المتعارضات في الواقع الطبيعي ويعمل على احداث المصالحة والتكامل فيما بينها

من خلال ابنية التبادل (١١) .

وبالنسبة لليفْي شتراوس اللاشعور لايشير الى محتوى انفعالي أو طاقة أو مبادىء للنشاط ، لكنه يشير فقط الى شكل (أو تجمع من الاشكال) خال من أي محتوى ، ووظيفته هي أن يفرض القوانين البنائية على المحتوى النفسي الذي يكون في حد ذاته غير متشكل ويتحرك بشكل عشوائي ، ان المحتوى النفسي يكوِّن المعجم « قبل اللاشعوري » أو الفردي للاندفاعات والانفعالات والتمثيلات والذكريات التي تتراكم في حياة الفرد الشخصية ، هذا المعجم السيكولوجي يصبح دالاً فقط عندما يتحول الى لغة ، أي عندما يكتسب أشكاله الخاصة من خلال اللاشعور ، ومفهوم اللاشعور كنشاط يقوم بالتشكيل وما يرتبط به من تأكيد على الشكل في مقابل المضمون يستحضر الى بؤرة الاهتمام ، كما يقول روسي ـ الجذر الخاص بالفرق الجوهري بين البنيوية والتحليل النفسي ، فعلماء التحليل النفسي يهتمون بقضية الاصل او المنشأ الفردي او الجمعي للاسطورة من خلال التسلسل التاريخي للوقائع ، وعلى العكس من ذلك يعتبر ليفْي شتراوس هذه القضية ذات اهمية هامشية ، لأنها تتعامل مع مخزون أو مادة الأسطورة والتي تعد في المرتبة الثانية من الاهمية بالمقارنة بالحقيقة الاساسية وهي ان القوانين البنيوية للأسطورة أو وظيفتها الرمزية تظل كما هي لا تتغير ، لقد كان فرويد مهتما بشكل خاص باللاشعور كمستودع للطاقة الغريزية وكمكوِّن تصوري هام للحياة النفسية واهتم « يونج » بالاضافة الى اللاشعور الفردي الذي اهتم به فرويد باللاشعور الجمعي الذي يقترب كثيرا من تصور ليفْي شتراوس للاشعور ويسبقه رغم انكار ليفْي شتراوس الدائم لهذا التشابه ، فاللاشعور الجمعي لدى يونج يشتمل على جانب المضمون وجانب الشكل ، جانب المخزون وجانب البناء ، انه مخزن آثار الذكريات الكامنة التي ورثها الانسان من ماضي اسلافه الاقدمين ، وهو الماضي الذي لا يشمل تاريخ الانسان فقط ، بل تاريخ اسلافه من الحيوان أيضا وهو يشتمل على المتخلفات النفسية لنمو الانسان التطوري والتي تتراكم نتيجة

الخبرات المتكررة بعد اجيال كثيرة ، وهي تبدو منفصّلة عن أي شيء شخصي في حياة الفرد وتكون أمرا مشاعا بين البشر جميعا ، ويُرجِعُ يونج شيوع اللاشعور الجمعي وعموميته الى تشابه البناء العقلي لدى جميع اجناس البشر نتيجة للتطور المشترك ، والمكونات البنائية للاّشعور الجمعي عند يونج تسمى بالانماط الاولية أو الصور الاسطورية أو أنماط السلوك او المسيطرات dominants، هو النمط الاولي « شكل فكري مشاع وعام ويتضمن قدرا كبيرا من الانفعال » [١٢] .

بالطبع نستطيع مما سبق أن نلمح أوجه تشابه بين يونج وليفْي شتراوس أكثر من تلك الموجودة بين ليفْي شتراوس وفرويد ، هذا مع وعينا بأن اللاشعور لدى ليفْي شتراوس منطقي ولدى يونج انفعالي ، لكن فكرة العمومية والاشتراك بين المراتب المختلفة من الوعي الانساني في هذا اللاشعور وكذلك تأكيد الجوانب البنائية له تجعله - في رأينا - لدى ليفْي شتراوس أقرب الى يونج منه الى فرويد ، لقد اكد ليفْي شتراوس مرة اخرى في الجزء الاخير من كتابه « اسطوريات » ان المحللين النفسيين يدعون انهم يربطون بنية العمل الجمعي او الفردي بما يسمونه بطريقة زائفة (منشأ هذا العمل أو أصله أو جذره) ، وهذا المنحى يبالغ في اختزال بعض مظاهر النظام الواقعية الى محتواها فقط والذي يكون عادة ذا طبيعة مختلفة ومن ثم لايمكنهم ان يتعاملوا مع الاشكال من الخارج دون ان يتضمن ذلك تناقضاً وعلى العكس من ذلك فان البنيوية الأصيلة تهدف في المقام الأول الى القبض على الخصائص الداخلية لانظمة معينة لاتعبر عن أي شيء خارجها . ان اسبقية الشكل على المضمون ، تتضمن أُسبقية المنظور البنائي التزامني synchronic على المنظور البنائي التتابعي Diachronic ، كما تتضمن ايضا اسبقية الابنية الجمعية والعامة الثابتة على الثوابت الفردية لقد اهتم ليفْي شتراوس باللاشعور من خلال اعتباره مجموعة من الابنية الدائمة والمنطقية للعقل ، وكان يعتقد ان الانثروبولوجيا كفرع من فروع المعرفة يمكنه أن يحرز التقدم فقط من خلال الاهتمام بدراسة التصورات والمفاهيم والفهم ولذلك فقد نظر الى الجوانب

الوجدانية والغريزية على انها اكثر جوانب الانسان اعاقة وعدم قابلية للفهم ىن ثم تـظل احدى العـوامل التي لاتخضـع للتفسير الكفء للعلوم الاجتمـاعية ، ان الانفعالات في رأيه هي نتيجة مترتبة على عمل قوى الجسم وعدم كفاءة العقل ، لذلك يـظل الذهن ـ في رأيـه ـ هـو المنـطقـة التي يمكن ان يحـرز فيهـا علم الانثروبولوجيا وكذلك علم النفس تقدما ملحوظا (١٣) ، ان هذا النوع من الفهم ربما كان هو الذي قاد ليفْي شتراوس في اتجاه اللغويات وفي اتجاه العلوم الطبيعية وعلم الحـاسبات الآليـة والسبير نـطيقـا ، لقـد تبنى في « العقـل البـري » و« الطوطمية » منظورا مستعارا عن نظرية المعلومات ، كما يتضح في تحليلاته المختلفة للاساطير فهمه للطبيعة الخاصة التي تعمل من خلالها الحاسبات الآلية ، وفي سنة ١٩٥٣ تقريبا اعتبر ليفْي شتراوس المجتمع بمثابة الآلة الخاصة التي تحدث فيها عمليـات تبادل الاتصـال او التخاطب communication ، والظواهـر الاجتماعية رسائل ، وبنيةُ اللغة هي الشفرة المستخدمة لنقل الرسائل . وكما تقوم شفرة مورسMorse على أساس الاستخـدام الثنائي Binary للشـرط أو القواطع القصيرة والطويلة ، فكذلك يفعل المخ حين يستخدم نظاما ثنائيا . واسهام اللغويين النفسيين يبدو انه يؤكد هذا المنظور الثنائي ، وقد تصور تروبتسكوي « الفونيم » في ضوء الوظائف التعارضية للاصوات ، أي في ضوء تعارضات الأصوات التي ينجم عنها معان مختلفة ، وحددها على انها حزمة من الخصائص المميزة ، وهذه الفكرة الخاصة بالتعارضات الثنائية لعناصر اللغة اكدها جاكوبسون ايضا ، وفي « الانسان عاريا » دعم ليفي شتراوس « منظوره الثنائي بملاحظة ان الشفرة الوراثية تتقدم مثل اللغة ، أي بالتركيب والاندماج والتعارض بين عدد صغير من العناصر ، وقد قبل ليفْي شتراوس مع جاكوبسون وغيرهما الى حد كبير المبدأ القائل بان التفسير الاكثر اقتصاداً هو الأكثر قربا من الحقيقة ، وقد أُدرك أن هذا المبدأ يقوم على أساس الهوية الواحدة identity المفترضة بين قوانين الكون وقوانين العقل الانساني ، وهي هوية تثير مشاكل ميتافيزيقية وعلمية كثيرة ، لقـد تبنى

شتراوس نزعة تشاكلية بين القوانين العقليـة والاجتماعيـة والطبيعية ، وبـين عمليات الوراثة وعمليات العقل وعمليات الطبيعة والعمليات الآلية الالكترونية ، بين شفرة الوراثة وشفرة الطبيعة وشفرة العقل وشفرة الآلة ، بين شكل الفكر الاسطوري وشكل العقل الانساني وشكل العمليات الطبيعية والعمليات الآلية ، مؤكدا وحدة المبدأ المنطقي العام والاشتراك في الدلالة ، ومؤكدا مع فـرويد أن المعـاني الأصيلة تكمن خلف المعاني الظاهـرة الخادعـة ، لكن المشكلة هي ان شتراوس « قد تطرف في تأكيد معقولية البدائيين الى حد القول بان للعقل الانساني هوية اساسية تظل ملازمة له في كل زمان ومكان ، واننا نستطيع كشف هذه الهوية بتحليل نواتج هذا العقل من أساطير ونظم اجتماعية وطقوس ... الخ في المجتمعات البدائية . وهنا يتعرض هذا التطرف المضاد للنقد الذي وجهه اليه « بياجيه » ، والذي ركز على قول شتراوس « بمنطق طبيعي » يكون الأساس الثابت لكل تفسير وتنظيم انساني ، أيا كان مكانه وزمانه . فليس هناك ما يمنـع على الاطلاق من تأكيد حدوث تطور حتى في تلك البناءات التي تمسك بها شتراوس ـ مثل أنساق القرابة ـ والتي ينبغي ان تكون ناجمة عن « مؤسسات » معينة ، ولابد ان يكون الجهد الجماعي الطويل الأمد هو الذي جعلها ممكنـة » [١٥] ان تأكيـدات ليفي شتراوس على الثبات والتشاكل بين الابنية العقلية البدائية والحديثة وبين الفكر العلمي والفكر الاسطوري وتجاهله المبكر لدور التاريخ والوعي بالتاريخ والجدل والصراع من خلال « وهم الثبات » ، كلها كانت المناطق التي وجه اليها نقـاده امثال سارتر وريكور ولوفيفر وغيرهم سهامهم ، وربما كانت الاجابات المقترحة للاسئلة المطروحة في هذا الكتاب الصغير هي محاولة لتلافي بعض جوانب هـذه الانتقادات .

الهوامش :

1 — Straus, claude levi, Structurol Anthropology, (Translated by claire jacobson and Brook Grund— fest schoepf), london : penguin Books, 1972,p.209 .

2 — Mounin, G. levi — Straus use of linguistics, in : the unconcious in culture, ed.by l. Rossi, new York Dutton, 1974, p. 39—40 .

3 — Straus, Structural Antthropology, p . 209—210 .

٤ ـ اديث كيرزويل ، عصر البنيوية : من ليفي شتراوس الى فوكو ، ترجمة د . جابر عصفور ، بغداد : دار آفاق عربية ، ١٩٨٥ ، ص ٣١ .

5 — Maquet, J . Isomorphism and symbolism as "explanation" in the analysis of myths in : the uncon- claus in cu— lture ed . by I . rossi; new york : 1974, p . 123 .

6 — straus, structural anthropology, pp . 210—214 .

7 — maquet, isomorphism and sybolism as explanation in the analysis of myths, pp . 127—130 .

8 — koffka, k. principles of gestolt psychology, london : kegan paul, 1935,p.62,p.109 .

9 — arnhein, R. the Gestalt theory of expression in psychology and visual arts, ed. by hogg, london : penguin, 1969 .

10 — Rossi, I. structuralism as scientific method, in : the unconcious in culture,p. 71 .

11 — Rossi, I, structure and history in the elementary structures of kinship, in : the unconciaus in cul— ture, pp. 113—115 .

١٢ ـ هول ، ك ، لندزي ، ج ، نظريات الشخصية ، ترجمة د . فرج احمد فرج لآخرون ، القاهرة الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ، ١٩٧١ ، ص ١١٢ ـ ١١٤ .

13 — Rossi, I, Intellectual antecedents of levistraus, pp. 17—19 .

14 — ibid, pp. 23—24 .

١٥ ـ د . فؤاد زكريا الجذور الفلسفية للبنائية ، حوليات كلية الآداب جامعة الكويت ، الرسالة الاولى ، ١٩٨٠ ، ص ٣١ .

محاضرات عام ١٩٧٧ .

منذ مجيء العلم في القرن السابع عشر ، قمنا برفض الميثولوجيا كنتاج خاص بالعقول التي تفكر بطريقة خرافيةاو بدائية . والآن فقط نحن على شفا التفهم الكامل لطبيعة الأسطورة ودورها في التاريخ الانساني . وفي المحاضرات الخمس التالية ، يقوم عالم الانثروبولوجيا الاجتماعية المتميز كلود ليفي شتراوس بتقديم استبصارات حياته التي قضاها مفسرا للأساطير ومحاولا اكتشاف دلالتها بالنسبة للفهم الانساني وتحت عنوان « الأسطورة والمعنى » أذيعت هذه الاحاديث في برنامج « افكار » براديو كندا ، في ديسمبر ١٩٧٧ ، وقد تم تجمعها من سلسلة من الاحاديث الطويلة بين بروفيسور ليفي شتراوس وكارول أورجيروم ، المنتجة في مكتب باريس التابع لاذاعة كندا CBC وقامت جيرالدين شيرمان المنتجة المنفذة لبرنامج « افكار » بتنظيم البرنامج وأنتجه « برنى لوخت » .

وقد تم التوسيع واضافة التفاصيل للمحاضرات عند اعدادها للنشر ، بحيث تشتمل على بعض المواد التي لم يكن ممكنا بسبب الوقت الاستفادة منها في البرامج الأصلية المذاعة ، والكلمات المذاعة تم حذف القليل منها بما يتناسب مع المادة المطبوعة المألوفة الأكثر تحديدا .

وكانت أسئلة « كارول أورجيروم » الأساسية التي وجهت الى البروفيسور ليفي شتراوس ساعدت في صياغة نمط المحاضرات على الشكل التالي :

الفصل الأول :

يعتقد الكثير من القراء أنك تحاول أن تعيدنا الى التفكير الأسطوري ، وبأننا قد فقدنا شيئا ثمينا جدا ، ومن ثم يجب عليناان نسترده ، هل معنى هذا أن العلم والتفكير الحديث يجب ان يخرجا من النافذة ، وانه ينبغي علينا ان نعود الى التفكير الاسطوري ؟

ما البنيوية ؟ كيف توصلت الى فكرة ان الفكر البنيوي كان امكانية متاحة ؟

هل من الضروري ان يكون لدينا النظام والقواعد كي يكون لدينا المعنى ؟
هل يمكنك ان تجد المعنى في الفوضى ؟ ماذا تعني بقولك ان النظام مفضل على الفوضى او الاضطراب ؟

الفصلان الثاني والثالث :

هناك من يقول إن تفكير البشر الذين نسميهم بالبدائيين هو تفكير أقل مستوى (أو ناقص) من التفكير العلمي ، وهم يقولون انه قاصر ليس بسبب مسألة تتعلق بالأسلوب ، ولكن بسبب كونه ، اذا تحدثنا بطريقة علمية ، يتسم بالخطأ ، كيف تستطيع أن تقارن بين الفكر البدائي ، و « الفكر العلمي » ؟ .

قال « الدوس هكسلي » في مناقشته في كتابه أبواب الادراك الحي Doors of perception أن معظمنا يستخدم كمية محدودة فقط من قواه العقلية بينما البقية من هذه القوى تعطل كاملة ، هل تعتقد أن في نوع الحياة التي نعيشهااليوم، نستعمل امكاناتنا وقدراتنا الذهنية اقل من الذين تكتب عنهم والذين يفكرون بطريقة اسطورية ؟

ـ الطبيعة تقدم لنا عالمامتنوع الالوان ، وقد نزعنا أو ملنا الى التقاط الفروق بيننا بدلا من التقاط أوجه التشابه في ارتقاء ثقافاتنا ، هل تعتقد أننا ارتقينا الى نقطة يمكننا عندها أن نبدأ في اغلاق العديد من مظاهر الانقسام أو الاختلاف التي توجد بيننا ؟

الفصل الرابع

هناك المشكلة القديمة التي تتعلق بالباحث الذي يقوم بتغيير موضوع بحثه من خلال وجوده هناك ، وعندما ننظر الى مجموعاتنا من القصص الأسطورية ، أتعتقد بوجود المعنى والنظام فيها أصلا ، أم أن النظام قد فرض عليها من خلال علماء الانثروبولوجيا الذين قاموا بجمع القصص ؟

ما الفارق بين التنظيم التصوري (أو المفهومي) للفكر الاسطوري والتنظيم التصوري للتاريخ ؟ هل يقوم السرد الأسطوري باخبارنا بقصة تتعامل

مع حقائق تاريخية ثم يقوم بتحويلها واستخدامها بطريقة اخرى ؟

الفصل الخامس :

هل تستطيع ان تحدثنا عموما عن العلاقة بين الأسطورة والموسيقى ؟

لقد قلت أن الأسطورة والموسيقى قد نبعا من اللغة ، لكنهما تطورا في اتجاهات مختلفة . ماذا تعني بذلك ؟

مقدمة :

رغم أنني سأتحدث عن تلك الأشياء التي تعرضت لها في كتبي ومقالاتي ، فلسوء الحظ أنني قد نسيت في الواقع ما قد كتبته بمجرد انتهائي منه ،ومن المحتمل ان يكون هناك بعض الاضطراب المتعلق بذلك ، أعتقد أن هناك أيضا الجانب المهم حوله ، وهو عدم شعوري بأنني قد كتبت كتبي ، لأن لدى الشعور بان كتبي قد كتبت من خلالي وأنه بمجرد عبورها خلالي فانني أشعر بالفراغ ، فلا شيء قد ترك . ويمكنك أن تتذكر أنني قد كتبت أن الأساطيرتضع الأفكار لدى الانسان الذي يجهلها .

وقد كان هذا مثيرا للانزعاج وأساء فهمه زملائي الذين يتحدثون الانجليزية ، لأن شعورهم كان من وجهة نظر عملية تماما أن هذه جملة لا معنى لها تماما ، لكنها بالنسبة لي تصف خبرة معيشة ، لأنها تقول بالضبط كيف أدرك علاقتي الخاصة بعملي ، أي أن عملي يترك بداخلي فكرة مجهولة بالنسبة لي عنه .

لم يكن لدي منّ قبل أبدا ، ومازال غير موجود لدي ، ذلك الادراك الخاص بالهوية الشخصية . إنني أبدو بالنسبة لنفسي كمكان تحدث فيه بعض الأشياء ولكن لا توجد « أنا » ولا توجد أيضا « ياء » الملكية فكل منا هو « مفارق طرق » تحدث فيها بعض الأشياء ، ومفارق الطرق بلا فاعلية تماما ، فشيء ما يحدث هناك ، وشيء آخر مماثل في الحقيقة يحدث أيضا في أي مكان آخر ، ليس هنالك أي اختيار لكنها المصادفة المحضة .

انني لا أتظاهر أو أدعى ذلك على الاطلاق ، لأنني أفكر بهذه الطريقة وأعتقد انه يمكنني أن استنتج أن النوع البشري يفكر بهذه الطريقة أيضا لكني اعتقد ايضا انه بالنسبة لكل دارس وبالنسبة لكل كاتب ، تقوم الطريقة الخاصة التي يفكر - او تفكر او يكتب - او تكتب - بها بفتح نافذة جديدة للنقاش ، والحقيقة انني شخصيا امتلك هذه الخاصية التي ربما تعطيني الحق في الاشارة الى شيء ما اعتبره صادقا ايضا وهو انه رغم ان الطرق التي يفكر بها زملائي تقوم بفتح نوافذ مختلفة ، فان كل هذه النوافذ تعد صادقة بدرجات متساوية .

الفصل الاول

لقاء الأسطورة والعلم



سوف أبدأ أولا باعتراف شخصي ، هناك مجلة أقوم بقراءتها بعناية كل شهر من أول سطر فيها حتى آخر سطر حتى لو لم أفهم الكثير مما يكتب فيها انها مجلة الامريكي العالم the scientific american انني شديد التوق بدرجة مبالغ فيها لأنني أعرف وبقدر الامكان كل شيء يحدث في العلم الحديث وما يطرأ عليه من تطورات وعلاقتي بالعلوم ليست علاقة سلبية على الاطلاق .

ثانيا : انني أعتقد أن هناك بعض الأشياء التي فقدناها وربما كان علينا أن نستعيدها ثانية ، لأنني لست متأكد أنه في عالم مثل عالمنا الذي نعيش فيه ومع نوع من التفكير العلمي علينا أن نلتزم به يمكننا ان نستعيد مثل تلك الاشياء كما لو لم يكن قد تم فقدها في الماضي . ولكن علينا أن نحاول أن نكون واعين بوجودها وبأهميتها ، وفي المقام الثالث فان شعوري هو أن العلم الحديث لم يتحرك بعيدا تماما عن تلك الاشياء المفقودة ولكنه كان يحاول أكثر وأكثر أن يعيد التكامل بينها في مجال التفسير العلمي ، والفجوة الحقيقية ، الانفصال الحقيقي بين العلم ما يمكن ان نسميه بالتفكير الاسطوري (من أجل ايجاد اسم متفق عليه رغم أنه ليس كذلك تماما) ، الثغرة او الانفصال separation الحقيقية حدثت في القرنين السابع عشر والثامن عشر . في ذلك الوقت ومع « بيكون ، وديكارت ، ونيوتن » وغيرهم كان من الضروري للعلم أن يقيم دعائمه بطريقة راسخة في مواجهة الأشكال القديمة من التفكير الاسطوري والسحري ، وقد كانت الفكرة هي ان العلم يمكن ان يوجد فقط من خلال اعتماده على عالم الحواس ، العالم الذي « نراه ونشمه ونتذوقه ، وندركه ؛ العالم الحسي » كان عالما وهميا بينما العالم الحقيقي كان عالم الخصائص الرياضية التي يمكن ان تفهم فقط بالعقل والتي كانت غير متفقة بشكل غريب مع الادلة الزائفة (الوهمية) التي تقدمها الحواس .

وربما كانت هذه حركة ضرورية ، لأن الخبرة تطلعنا على أهمية امتناننا لهذا الانفصال أو هذا الفصام اذا رغبت ، لأنه من خلاله استطاع التفكير العلمي ان يبني نفسه .

والآن فان انطباعي (وبالطبع أنا لا اتحدث كعالم فأنا لست من علماء الطبيعة والبيولوجيا ولا الكيمياء) هو ان العلم الحديث يحاول أن يسدّ هذه الفجوة ، وانه وبطريقة متزايدة فان البيانات (المعلومات) الحسية يعادلها تكاملها مع التفسير العلمي باعتبارها شيئا له معناه ، وله حقيقته ، ويمكن تفسيره .

خذ على سبيل المثال عالم الروائح (الشميات) ، لقد اعتدنا أن نفكر بان هذه الروائح هي خبرة ذاتية خارج عالم العلم والآن أصبح علماء الكيمياءقادرين على ان يخبرونا بان كل الروائح وكل الأطعمة (المذاقات) لها تكوين كيميائي خاص وكذلك اصبحوا قادرين ان يخبرونا لماذا نشعر بان بعض الروائح والمذاقات تبدو لنا متشابهة بينما بعضها الآخر تبدو لنا شديدة الاختلاف .

دعنا نأخذ مثالا آخر ، لقد كانت هناك في الفلسفة منذ ايام الاغريق والى القرن الثامن عشر بل وحتى القرن التاسع عشر مناقشة كبيرة مازالت موجودة الى حد ما ـ حول أصل الافكار الرياضية : فكرة الخط ، وفكرة الدائرة وفكرة المثلث وغيرها ، لقد كان هناك في الاساس نوعان من النظريات الكلاسيكية : احداهما تنظر للعقل على انه صفحة بيضاء وحيث لا يوجد اي شيء فيه منذ البداية وكل شيء يأتي له من خلال الخبرة وانه من خلال رؤية عدد كبير من الأشياء المستديرة لا يكون احدها كامل الاستدارة تماما نكون قادرين ـ مع ذلك ـ على تجريد فكرة الدائرة والنظرية الكلاسيكية الثانية ترجع بجذورها الى افلاطون الذي زعم ان مثل هذه الافكار الخاصة « بالدائرة ، المثلث ، والخط » ، هي افكار كاملة وهي تأتي بطريقة فطرية الى العقل وبسبب كونها معطاة للعقل نكون قادرين على اسقاطها ـ كما قال ـ على الواقع رغم ان الواقع لا يقدم لنا مثل هذه الدائرة الكاملة او المثلث المكتمل .

والآن فان الباحثين المعاصرين في مجال فسيولوجيا الاعصاب الخاصة بعملية الابصار يعلموننا ان الخلايا العصبية في شبكية العين والاجهزة الأخرى

التي تقع خلف الشبكية هي خلايا متخصصة ، فبعض الخلايا تكون حساسة فقط بالنسبة لعملية التوجه او الاتجاه المباشر بطريقة رأسية بينما خلايا اخرى تكون مسؤولة عن اتجاه حركتنا بطريقة افقية وخلايا ثالثة تكون مسؤوله عن عمليات اللف والدوران بينما خلايا رابعة يناط بها مسؤولية احداث العلاقات بين الاشكال الخلفية والاشكال المركزية وهكذا .

ولذلك ـ وانا اقوم بالتبسيط الى حد كبير لانه من المعقد بالنسبة لي ان اقوم بشرح مثل هذه الامور باللغة الانجليزية ـ فان المشكلة الكلية الخاصة بالخبرة في مقابل العقل يبدو ان لها حلا في بنية الجهاز العصبي ، وليس في بنية العقل او الخبرة ولكن في مكان ما بين العقل والخبرة ،في الطريقة التي تم بناء جهازنا العصبي بها وكذلك في الطريقة التي يقوم بها جهازنا العصبي بالوساطة بين العقل والخبرة .

وربما كان هناك شيء ما عقلي ، عميق وخاص هو ما جعل من الممكن ان أكون دائما ما يطلق عليه الآن لقب البنيوي .

فقد اخبرتني أمي انه عندما كنت في حوالي الثانية من العمر وكنت مازالت غير قادر على القراءة ـ وهذا امر طبيعي ـزعمت انني استطيع القراءة بالفعل وعندما سُئِلْتُ : لماذا ؟ قلت بأنني عندما أنظر الى لافتات الحوانيت والمحال التجارية التي كتب عليها كلمات مثل خبازاو قصاب (جزار) أكون قادرا على قراءة شيء ما وذلك ما كان متشابها بطريقة واضحة ـ ومن وجهة نظر خاصة بالكتابة والخطوط ـ في الكتابة لم يكن من الممكن ان يعني شيئا آخر غير المقطع bou وهو المقطع الاول في كلمتى قصاب ، boucher وخباز boulanger بالفرنسية .

وربما لم يكن هناك شيء اكثر من هذا في المنحى البنيوي ، انه البحث عن الثابت او هو البحث عن العناصر الثابتة فيما بين الاختلافات السطحية .

وخلال حياتي ،ربما كان هذا البحث هو الاهتمام العقلي الذي ساد ما عداه من اهتمامات لدي .

وعندمـا كنت طفـلا ، ولفتـرة.مـا كـان اهتمـامي الرئيس متعلقـا بعلم الجيولوجيا ، والمشكلة في الجيولوجيا كانت ايضا هي محاولة فهم ما هو ثابت وغير ثابت في ذلك التعدد الهائل عن مظاهر الطبيعة ومناظرها ، أي ان اكون قادرا على اختزال المشاهد الطبيعية العـديدة الى عـدد محدود من الطبقـات الجيولوجيـة والعمليات الجيولوجية ايضا ، وفيما بعد وعندما كنت مراهقاً كنت اقضي جـزءاً كبيرا من وقت فراغي في رسم بعض الأزياء ومشاهد للاوبرا ، وكانت المشكلة هنا ايضا هي نفس المشكلة السابقة تماما ، اي ان احاول التعبير بلغة واحدة ، اي بلغة الفنون التشكيلية والتصوير عن شيء ما يوجد في الموسيقى والنص الاوبرالي ، اي ان أحاول أن أصل الى الخاصية الثابتة غير المتغيرة في كل مجموعة معقدة من الرموز ، (الرمز الموسيقى ، الرمز الأدبي ، الرمز الفني التشكيلي) .

والمشكلة هي اكتشاف ماهو مشترك بين هذه الرموز . وقد يقال أن هذه مشكلة متعلقة خاصة بالترجمة ، ترجمة ما هو معبَّر عنه بلغة واحدة ، او برمز واحد ، اذا فضلت ذلك رغم تفضيلي لكلمة « لغة » الى تعبير بلغة مختلفة .

البنيوية ، او ما قد يوضع تحت هذا الاسم ، قد اعتبرت على أنها بمثابة الشيء الجديد تماما والثوري (الأنقلابيّ) في الوقت نفسه وهذا كما اعتقد هو امر زائف دون شك ، ففي المقام الأول ـ حتى في مجال الانسانيات ـ لا تعد البنيوية جديدة تماما ، فنحن يمكننا تتبع هذا التيار من التفكير منذ عصر النهضة والى القرن التاسع عشر وحتى وقتنا هذا . وفي المقام الثاني يعد هذا الامر خاطئا ايضا بسبب آخر ، فما نسميه بالبنيوية في مجال اللغويات او الانثروبولوجيا او ما شابه ذلك ليس أكثر من تقليد خافت وشاحب لما استخدمته العلوم الطبيعية شديدة الدقة منذ زمن طويل .

إنّ أمـام العلم طريقتين فقـط للتقدم ، أمـا طريقة الاختـزال او الطريقة البنيوية . ويكون العلم اختزاليا عندما يكون من الممكن ان يكتشف ان ظواهـر شديدة التعقيد عند احد المستويات يمكن اختزالها الى ظواهر اكثر بساطة عند

مستويات اخرى . على سبيل المثال هناك العديد من مظاهـر الحياة التي يمكن اختزالها الى عمليات كيميائية فسيولوجية تكون قادرة على تفسير جزء من الحياة ولكن ليس كل الحياة .

وعندما نواجه بظواهر شديدة التعقيد بحيث لا يمكن اختزالها الى ظواهر اخرى في نظام اقل تعقيدا ، فانه يمكننا ان نقترب من الظواهر الشديدة التعقيد بان ننظر الى علاقاتها المتضمنة اي ان نحاول فهم نوع النسق الاصيـل الذي تصنعه هذه العلاقات .

وهذا هو بالفعل ما حاولنا ان نفعله في اللغويـات وفي الانثروبـولوجيا وفي مجالات اخرى مختلفة .

وفي الواقع ـ ودعنا نقوم بشخصنة الطبيعة من اجل هذه المناقشة ـ ان الطبيعة تشتمل على عدد محدود فقط من الاجراءات او العمليات في متناول يدها ، وان انواع الاجراءات التي تستخدمها الطبيعة عند مستوى معين من الواقع تميل الى ان تعاود الظهور عند مستويات اخرى مختلفة . الشفرة الوراثية مثال شديد الجودة هنا ، فمن المعروف تماما انه عندما ظهرت امام علماء البيولوجيا والوراثة مشكلة وصف ما قد اكتشفوه فانهم لم يجـدوا شيئا متـاحا لديهم افضـل من استعارة اللغة من اللغويات وان يتحدثوا من خلال الكلمات والعبارات والنبرات وعلامات الترقيم وغيرها ، وانا لا اعني على الاطلاق ان هذا هـوالشيء نفسه ، بالطبع ليس هو ،ولكنها المشكلة نفسها التي تظهر عند مستـويين مختلفـين من مستويات الواقع .

ومن الاشياء البعيدة تماما عن تفكيـري ان اقوم بـاختزال الثقـافة كمـا نستخدمها في مصطلحاتنا الانثروبولوجية الى الطبيعة ولكن مع ذلك فان ما نشاهده عند مستوى الثقافة هي ظواهر من النوع نفسه من الناحية الشكلية (ولا اقصد اطلاقا الناحية الجوهرية) .

ويمكننا في الاقل ان نتتبع المشكلة نفسها عقليا بالنسبة للعقل الذي نلاحظة

عند مستوى الطبيعة رغم انه بطبيعة الحال ـ يكون العقل الثقافي اكثـر تعقيدا ويتطلب وضع عدد اكبر من المتغيرات في الاعتبار لكنني لا احاول ان اقوم بصياغة فلسفة او حتى نظرية ، فمنذ كنت طفلا كنت مهتما بالنواحي اللاعقلانية ، وقد حاولت ان اكتشف نظاما يقبع خلف الفوضى المعطاة لنـا ، ولذلك فقد حـدث أنْ اصبحت انثروبولوجيا ، وفي حقيقة الامر فان ذلك لا يرجع الى كوني كنت مهتما بالانثروبولوجيا ولكن بسبب كوني كنت احاول الابتعاد عن الفلسفة .

وقد حدث ان كان من الممكن في الاطار الاكاديمي الفرنسي أنّ الانثروبولوجيا في وقت ما يتم تعليمها ليس باعتبارها احد الانظمة المستقلة في الجامعة ، ولكن كأحد الانظمة التي يمكن لاي شخص قام بدراسة الفلسفة او يقوم بتدريسها ان يقوم بالهروب اليها .

وقد هربت الى هناك ، (الى الانثروبولوجيا) وقد واجهتني في الحال احدى المشكلات ، فقد كان هناك عدد هائل من قواعد الزواج في مختلف انحاء العالم بحيث يبدو الامر بلا معنى على الاطلاق ، وقد كان الامر مثيرا للقلق والاضطراب ايضا ، لانه اذا كانت هذه القواعد بلا معنى فعلا فانه كان من الواجب ان تكون هناك قواعد مختلفة بالنسبة لكل شعب ، رغم ان اي عدد من القواعد مع ذلك ، يمكن ان يكون اكثر او اقل تحديدا ، ولكن اذا كان نفس العبث يميل الى ان يعيد الظهور بشكل متسع أكثر فاكثر ونوع آخر من العبث يميل ايضا الى الظهور ثانية فان ذلك قد يعني ان مثل هذه الاشياء لم تكن عبثا على الاطلاق والا فانه لم يكن من الممكن ان تعاود هذه الاشياء الظهور مرة اخرى .

وقد كان هذا هو توجهي الاول ، ان احاول اكتشـاف النظام خلف هـذه الفوضى الواضحة . وبعد دراستي لأنساق القرابة وقواعد الزواج (نظم الزواج system) تحول انتباهي مصادفة وليس بطريقة مقصودة على الاطلاق في اتجاه الاساطير .

وقد واجهتني المشكلة نفسها تماما ، فالقصص الاسطورية تبدو بطريقة

تحكمية بلامعنى وبعبثية ، ومع ذلك فانه يبدو انها تعاود الظهور في مختلف انحاء العالم .

ان الابداع الخيالي للعقل في مكان ما يكون فريد او انت لن تجد الابداع نفسه في مكان مختلف تماما ،وقد كانت مشكلتي هي ان احاول اكتشاف ما اذا كان يوجد ثمة نظام خلف هذه الفوضى البادية .

وهذا هو كل ما في الامر ، وانا لا ازعم بانه توجد استنتاجات يمكن التمسك بها ، ولكن من المستحيل كما اعتقد ان ندرك المعنى دون نظام .

وهناك امرمثير للاهتمام تماما في مجال « السيمانطيقا » semanties او « علم المعاني » او « الدلالات » وهو ان كلمة « معنى » هي ربما في اللغة ككل أصعب الكلمات التي يمكن ايجاد معنى لها .

فما هو معنى « المعنى » ؟ ويبدو لي ان الاجابة الوحيدة التي يمكن ان نطرحها هي ان كلمة « معنى » معناها قدرة اي نوع من انواع المعلومات او البيانات وقابليتها للترجمة الى لغة مختلفة ، ولا اعني بذلك لغات مختلفة كالفرنسية او الالمانية ولكن اعني كلمات مختلفة عند مستوى مختلف وبالاضافة الى كل ذلك فان هذه الترجمة هي ما يتوقع من القاموس ان يعطيك اياها ؛ معنى الكلمة بكلمات مختلفة تكون عند مستوى مختلف بدرجة طفيفة متشاكلة (متشابهة من حيث الشكل) isomorphic مع الكلمة او التعبير الذي تحاول ان تفهمه .

والآن ماذا يمكن ان تكون الترجمة عليه بدون قواعد ؟ انها سوف تكون مستحيلة الفهم بدرجة مطلقة لأنه لا يمكنك ان تستبدل اية كلمة بأية كلمة اخرى او اية جملة بأية جملة اخرى ، ان عليك ان تمتلك قواعد الترجمة ، والحديث عن القواعد والحديث عن المعنى هو حديث عن الشيء نفسه واذا نظرنا الى كل الانجازات العقلية للجنس البشري كما هي محفوظة في مختلف انحاء العالم فان المقام الشائع دائما هو تقديم شيء من النظام ، واذا كان ذلك يمثل حاجة اساسية النظام في العقل الانساني ، وحيث انه وقبل كل شيء بما ان العقل الانساني هو جزء

من الكون فان هذه الحاجة من المحتمل ان توجد بسبب وجود نظام ما في العالم ، وان الكون ليس عبارة عن فوضى .

وما احاول قوله هنا هو انه كان هناك انفصال ضروري بين الفكر العلمي وبين ما قد اسميته بقانون المحسوس اي احترام واستخدام المعلومات المعطاة من خلال الحواس باعتبارها مقابلة للصور او ما شابه ذلك .

ونحن نشهد اللحظة التي سوف يتم التغلب فيها على هذا الانفصال او جعله معكوسا ، وذلك لأن العلم الحديث يبدو قادرا على احراز التقدم ليس فقط في نطاقه التقليدي الذي تقدم كثيرا جدا للامام ـ ولكنه ظل في نفس القنوات الطبيعية ـ ولكنه ايضا يبدو قادرا في نفس الوقت على توسيع القناة وان يعيد ادماج عديد من المشكلات الهامة التي تركت من قبل في الخارج ، قد اكون خاضعا للانتقاد بان اسمى « متعصبا علميا » [1] اي ذلك النوع من المعتقدين بشكل اعمى في العلم ، الذين يعتقدون ان العلم قادر على حل كل المشكلات . حسنا ، انني لا اعتقد ذلك لأنني لا استطيع ان أدرك انه في أحد الايام القادمة سيكون العلم كاملا ومنجزا ، فسوف تكون هناك دائما مشكلات جديدة وفي نفس الوقت فانه من الاشياء الدقيقة ان تقول ان العلم كان قادرا على حل عديد من المشكلات التي تم الاعتقاد بانها فلسفية ومستعصية على الحل لعدة سنوات اثناء القرن الماضي .

وهكذا فسوف تظهر مشكلات جديدة لم يتم ادراكها حتى الآن بشكل جيد ، وسوف تكون هناك دائما فجوة بين الاجابة التي يكون العلم قادرا على اعطائها لنا وبين السؤال الجديد الذي سوف تثيره هذه الاجابة ، وهكذا فانا لست متعصبا للعلم بهذه الطريقة ، فالعلم لن يعطينا كل الاجابات وما يمكن ان نحاوله هو ان نزيد بطريقة تدريجية عدد ونوعية الاجابات التي نكون قادرين على اعطائها وهذا ما يمكن ان نفعله كما اعتقد من خلال العلم فقط .

---

(١) او متعالما scientiste

الفصل الثاني

التفكير « البدائي » والعقل « المتحضر »



ان طريقة التفكير التي توجد لدى البشر الذين نسميهم عادة ـ وبطريقة خاطئة ـ البدائيين ، ودعنا نصفهم بدلا من ذلك باسم الشعوب التي لا تكتب او دون مستوى الكتابة without writing أو الشعوب دون مرحلة الكتابة ، لأنني أعتقد ان ذلك في الواقع هو العامل المميز بينهم وبيننا ، هذه الطريقة قد تم تفسيرها بطريقتين مختلفتين ، وكلاهما في رأيي كان خاطئا بدرجة مماثلة ، والطريقة الاولى كانت ان ينظر الى مثل هذا التفكير كما لو كان خاصية جافة او جِلفَةً أو تتسم بالخشونة ، وفي الانثروبولوجيا المعاصرة فان المثال الذي يأتي الى الذهن مباشرة هو ما قام به مالينوفسكي Malinowiski من اعمال ، ويجب ان أقول على الفور بانني اشعر باحترام كبير نحوه واعتبره احد علماء الانثروبولوجيا الكبار ، ولست اسخر او ازدري اسهامه على الاطلاق ولكن ومع ذلك فان الشعور لدى مالينوفسكي كان هو أن تفكير الشعوب التي درسها وبصفة عامة أي تفكير الشعوب التي « بدون كتابة » وهم الذين يشكلون مادة الانثروبولوجيا ، هذا التفكير في رأيه محدد تماما بالحاجات الضرورية للحياة . وإنك اذا عرفت ان احد الشعوب ـ أيا كان ـ يقتصر سلوكه على الضروريات المحضة للحياة واكتشاف المواد الاساسية واشباع الدوافع الجنسية وماشابه ذلك ،فانه يمكنك ان تفسر مؤسساته الاجتماعية ومعتقداته وأساطيره وما شابه ذلك ، ومثل هذا التصور شديد الانتشار في الانثروبولوجيا ، وغالبا ما يوضع بصفة عامة تحت اسم الوظيفية Functionalism . أما الطريقة الأخرى أو النموذج الأخر في النظر الى تلك الشعوب فلا يرى أن هناك نوعا من التفكير أشد قصورا من غيره لكنه يراه مختلفا تماما وبشكل جوهريّ عن غيره من انواع التفكير ، وتمثل هذا المعنى أعمال ليفي ـ برول Levy — Bruhi الذي اعتبر ان الفارق الاساسي بين التفكير « البدائي » ـ وأنا اضع دائما كلمة « بدائي» بين علامتي التنصيص ـ والتفكير الحديث ان النوع الاول يكون محدّد تماما بواسطة التمثيلات الانفعالية والسحرية ، وبينما يكون تصور مالينوفسكي تصورا نفعيا Utilitarian فان التصور الآخر هو تصور انفعالي

وجداني . وما حاولت أن أؤكده هو أن الشعوب التي بدون كتابة كان فعلا ، او يمكن ان يكون في امثلة عديدة ، تفكيرا منزها عن الهوى disinterested وهذا أحد الفروق فيما يخص العلاقة مع مالينوفسكي ، هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان هذا التفكير هو تفكير عقلاني او ذهني intellectual ، وهذا ايضا أحد الفروق فيما يتصل بالعلاقة مع ليفي برول .

ان ما حاولت ان ابينه في الطوطمية Totemism وفي العقل المتوحش savage mind ، على سبيل المثال ، هو ان تلك الشعوب التي عادة ما ننظر اليها على انها خاضعة تماما للحاجة الى تجنب حالة التضور جوعا ، والاستمرار في حالة قدرة على البقاء في ظل ظروف مادية شديدة القسوة ، هذه الشعوب تكون قادرة تماما على القيام بتفكير منزّه عن الهوى اي انهم يتحركون من خلال الحاجة او الرغبة لفهم العالم المحيط بهم ، طبيعة ومجتمع هذا العالم ، ومن ناحية اخرى ، فانه من اجل الوصول الى تلك الغاية فانهم يتقدمون من خلال وسائل عقلية ، بالضبط كما يفعل الفيلسوف ، أو حتى ـ الى حد ما ـ كما يفعل العالم ، انهم يستطيعون ذلك ويطمحون اليه ايضا . هذا هو الفرض الأساسي لديّ .

وأحب أن أبدِّدَ سوء الفهم بالطريقة الصحيحة ، فالقول بان طريقة معينة في التفكير تتسم بالنزاهة وانها طريقة عقلية في التفكير لايعني ابدا انها مماثلة للتفكير العلمي ، بالطبع فانها تظل مختلفة بشكل ما وقاصرة بشكل آخر ، انها تظل مختلفة لانها تطمح للوصول باقصر الوسائل الممكنة الى فهمٍ عامّ للعالم ، ليس فقط فهما عاما ، بل ايضا فهما شاملا وكليا لهذا العالم ، ومعنى هذا انها طريقة للتفكير لابد وان تتضمن اليقين بانك لو لم تستطع فهم كل شيء ، فانك لن تستطيع تفسير اي شيء ، وهذا يناقض تماما ما يفعله التفكير العلمي الذي يتقدم خطوة خطوة محاولا أن يُعطي تفسيرات لمجال محدود تماماً من الظواهر ، ويستمر في ذلك ، وكما قال ديكارت فعلا فان التفكير العلمي يهدف الى تقسيم المشكلة الى أجزاء عديدة بقدر ما تقتضيه الضرورة ومن أجل ان يقوم بحلها . وهكذا فان هذا الطموح الكلي

للعقل المتوحش هو امر مختلف تماما عن اجراءات التفكير العلمي ، وبالطبع فان الفارق الكبير هو ان ذلك الطموح لا يحالفه التوفيق ، فنحن نستطيع من خلال العلم ان نحقق السيطرة على الطبيعة ـ ولا اريد التفصيل او الاستفاضة في هذه النقطة فهي واضحة بدرجة كافية ـ بينما ـ بالطبع تكون الاسطورة غير ناجحة في اعطاء الانسان قوة مادية اضافية للتحكم في البيئة ، على كل حال فانها تعطي الانسان وهذا امر شديد الاهمية ـ الوهم بانه يستطيع ان يفهم العالم وانه يفهمه فعلا ، وهذا يعد بالطبع ، مجرد وهم ويجب ان نلاحظ ، على كل حال ، اننا كمفكرين علميين انما نستخدم فقط كمية محدودة جداً من قوانا العقلية، فنحن نستخدم ما تحتاجه فقط مهنتنا او تجارتنا او الموقف الخاص الذي ننهمك فيه في لحظة معينة ، وهكذا فانه اذا انشغل أحد الاشخاص لمدة عشرين سنة او اكثر بالطريقة التي تعمل بها الاساطير وانساق القرابة فانه سوف يستخدم هنا فقط القسم الخاص من قواه العقلية [1] ، لكننا لا نستطيع ان نطلب من كل فرد منا ان يكون مهتما تماما بنفس الاشياء التي يهتم بها الآخرون ، ومن اجل ذلك فان كل فرد منا يستخدم كمية معينة من قواه العقلية من اجل مانحتاجه او ما قد يثير اهتمامنا .

وفي ايامنا هذه نحن نستخدم طاقات أكبر وطاقات اقل من امكاناتنا العقلية وبشكل اكبر واقل مما كنا نفعل في الماضي وليس من الضروري ان تكون الامكانات العقلية التي نستخدمها الآن هي نفس الامكانات التي كنا نستخدمها في الماضي في أي الموقفين (اكثر واقل) . على سبيل المثال نحن نستخدم طاقات اقل من اجل ادراكاتنا الحسية sensory perceptions ، وعندما كنت اقوم بكتابة النسخة الاولى من كتابي (اسطوريات ، مقدمة الى علم الاساطير) واجهتني واربكتني مشكلة ما كانت تبدو لي غامضة بدرجة كبيرة ، فقد كان يبدو ان قبية خاصة كانت قادرة على

---

(١) يشير شتراوس هنا الى نفسه والى دراساته الخاصة في هذا السياق وقد سبق له الحديث عنها في الفصل الاول من هذا الكتاب (المترجم) .

رؤية كوكب الزهرة في ضوء النهار الكامل وهو أمر كان سيبدو لي تماما على انه مستحيـل وغير قـابل للتصـديق تمامـا ، وقد طرحت المشكلة عـلى علمـاء فلك متخصصين ، وقد اخبروني ، بالطبع ، باننا لانعرف ولكن ، مع ذلك ، عندمـا نعرف كمية الضوء التي تصدر عن كوكب الزهرة في ضوء النهار الكامل (في وضح النهار) فانه لن يصعب مطلقا تصديق ان يكون بعض الافراد قادرين على ذلك . وفيما بعد رجعت الى بعض الدراسات القديمة عن الملاحـة والرحلات البحـرية الخاصة بحضارتناوبدا لي منها ان بعض البحارة القدماء كانوا قادرين تماما على رؤية الكوكب في وضح النهار وربما كنا نحن قادرين على ان نفعل ذلك اذا كانت لدينا العين المدّربة .

انه الامر نفسه وبالضبط فيما يتعلق بمعرفتنا عن النباتات والحيوانات ، فالافراد الذين هم تحت مستوى الكتابة لديهم معرفة دقيقة بدرجة مذهلة ببيئتهم وكل مواردهم ، ونحن قد فقدنا كل هذه الاشياء ، ولكننا لم نفقدها مقابل لا شيء ، فنحن على سبيل المثال الآن اصبحنا قادرين على قيادة السيارة دون ان نتعرض للموت في كل لحظة ، كذلك أصبح في امكاننا ان ندير في المساء مؤشر التلفزيون او الراديو ، وهذا يتضمن تدريبا لبعض الامكانات العقلية التي لا تمتلكها الشعوب « البدائية » لانها ليست في حاجة اليها ، وانني أشعر بانه من خلال الامكانات الكامنة التي يمتلكونها يمكنهم تغيير الكيفية التي تعمـل من خلالهـا عقولهم ، ولكنهم لم يكونوا في حاجة لذلك بسبب نوع حياتهم وعلاقتهم بالطبيعة ، انك لن تستطيع الارتقاء بكل القدرات العقلية الخاصة بكـل الجنس البشري ، كـل ما تستطيعه هو ان تستخدم قطاعا صغيرا وهذا القطاع الصغير يختلف باختلاف الثقافات ، وهذا هو كل ما في الامر وربما كانت واحدة من النتائج التي نجمت عن البحوث الانثروبولوجية العديدة انه رغم الفروق الثقافية بين الاقسام او الفئات العديدة للجنس البشري فان العقل الانساني في كل مكان واحد ومتشابه ويحتوي على نفس القدرات ، واعتقد ان هذه النتيجة مقبولة في كل مكان .

انني لا اعتقد ان الثقافات قد حاولت بطريقة منتظمة او منهجية ان تجعل

نفسها مختلفة عن غيرها فحقيقة الامر هي انه منذ مئات او آلاف السنين لم يكن الجنس البشري على الارض بهذه الكثرة ، وكانت الجماعات الصغيرة تعيش في حالة عزلة ولذلك كان من الطبيعي فقط ان تقوم بتطوير خصائص خاصة مميزة لها ومن ثم تصبح مختلفة عن غيرها .ولم يكن هذا الامر مقصودا بدلا عن ذلك فقد كان ما حدث نتيجة للظروف التي كانت شائعة لفترة من الزمن شديدة الطول .

والآن فانني لا اريدك ان تعتقد ان هذا في حد ذاته ضاراً أو مؤذيا ، او ان هذه الفروق يجب التغلب عليها ، ففي حقيقة الامر تعد هذه الفروق خصبة وسبيلاً للابداع الى حد كبير ، فمن خلال الفروق فقط حدث التقدم . ان ما يهددنا بحق الآن ربما كان هو ما يمكن ان نسميه بالاتصال الزائد Over — Communication اي النزعة السائدة في مكان ما من العالم لمعرفة كل ما يحدث في كل الاجزاء الاخرى منه ، ومن أجل ان تصبح ثقافة ما هي نفسها بشكل حقيقي وان تنتج شيئا ، على هذه الثقافة وافرادها ان يقتنعوا باصالتهم الخاصة ، بل وحتى ـ الى حد ما ـ بتفوقهم على الآخرين . انه فقط تحت شروط او ظروف الاتصال ـ الأقل (او الأضعف) يمكن لاحدى الثقافات ان تنتج شيئا ، ونحن الآن مهددون من خلال ليس فقط توقع ان نصبح كائنات استهلاكية فقط ، قادرة على استهلاك اي شيء من اي بقعة في العالم ومن اية ثقافة ، بل وايضا أن نفقد كل أصالتنا .

ويمكننا أن نتصور الآن بسهولة الوقت الذي ستكون فيه ثقافة واحدة وحضارة واحدة على سطح الأرض كلها . ولا اعتقد أن ذلك يمكن أن يحدث بسبب وجود نزعات متعارضة في حالة نشاط دائما ، تسير من ناحية في اتجاه التجانس ومن ناحية اخرى في اتجاه التمايزات الجديدة ، وكلما زاد مقدار التجانس في حضارة ما ، زاد ظهور خطوط الانفصال الداخلية فيها ، وما يتم الحصول عليه عند أحد المستويات يتم فقدانه مباشرة عند مستوى آخر ، وهذا مجرد احساس شخصي وليس لدي دليل واضح على العملية الخاصة بهذا الديالكتيك ، ولكني لا أستطيع أن ارى كيف يمكن للجنس البشري ان يعيش حقيقة دون بعض مظاهر

التنوع الداخلية .

دعنا الآن ننظر الى اسطورة من غرب كندا تتعلق بسمكة السَفّن (او الورنك) skate التي تحاول ان تتفوق او تسيطر على ريح الشمال وتنجح في ذلك ، انها قصة خاصة بذلك الزمن الذي وجد على الارض قبل الجنس البشري ، وهي خاصة بزمن لم تكن فيه الحيوانات والبشر في واقع الامر يتميزون عن بعضهم البعض ، كانت الكائنات نصف بشرية ونصف حيوانية لكنها كلها كانت تضايقها الرياح ،وذلك لأن الرياح ، وخاصة الرياح السيئة ، كانت تهب طيلة الوقت وتجعل من المستحيل القيام بالصيد او بناء اماكن المأوى على الشواطىء ، ولذا قرروا ان يحاربوا الرياح ويجبروها على ان تسلك مسلكا طيبا فقامت حملة اشترك فيها العديد من البشر الحيوانيين او الحيوانات البشرية واشتملت هذه الحملة على سمكة السَفّن التي لعبت دورا هاما في اسرريح الشمال ، وقد اطلق سراح ريح الشمال عندما وعد [1] بالا يهب طوال الوقت ، ولكن من حين لآخر ، او في فترات محددة فقط ، ومنذ ذلك الوقت ، اصبحت ريح الشمال تهب في فترة محددة من السنة ، لمدة يوم واحد كل يومين [2] ، وخلال بقية السنة يستطيع البشر ان يقوموا بنشاطاتهم المعتادة .

حسنا ، هذه القصة لم تحدث ابدا ، ولكن ما علينا ان نفعله ليس ان نطّمئن انفسنا بان ذلك مجرد عبث او اوهام خلقها عقل ما في لحظة من لحظات الهتر delirium وانما علينا ان ناخذ الامر بجدية ونسأل انفسنا ، لماذا سمكة السفّن skate ولماذا ريح الشمال .

وعندما ننظر نظرة قريبة الى المادة الاسطورية كما تم اخبارنا بها ، فانك ستلاحظ ان سمكة « السَفّن » تنشط هنا من اجل مجموعة من الخصائص المميزة

---

(١) يتحدث شتراوس عن الريح في هذه الاسطورة بصيغة المذكر (المترجم) .

(٢) المقصود هنا حالة الهبوب او حالة السكون ، او حالة الظهور وحالة الاختفاء لهذه الرياح .

لها وشديدة الدقة ، وتنقسم هذه الخصائص على نوعين : الاول منهما هو ان هذه السمكة مثل كل انواع السمك المسطح : املس البطن ، خشن الظهر ، والامكانية او القدرة الثانية التي تسمح « لسمكة السَفّن » ان تهرب بنجاح عندما يكون عليها ان تقاتل حيوانات عديدة شديدة الضخامة من أسفل ومن اعلى وشديدة النحول عندما تُرى من الجانب ، وقد يعتقد أحد الخصوم انه من السهل عليه تماما ان يصوب سهما ويقتل هذه السمكة بسبب ضخامة حجمها ، ولكن في اللحظة التي يصوب فيها السهم الى « سمكة السفّن » فانها تستدير وتراوغ وتظهر الناحية الجانبية (البروفيل) منها ، والذي يكون من المستحيل بالطبع التصويب عليه ومن ثم يتم لها الهرب ، وهكذا فان السبب الذي اختيرت من أجله هذه السمكة هو انها حيوان يمكنه بالنظر اليه من اتجاه معين للرؤية او من اتجاه آخر ان يعطي - اذا استخدمنا لغة السبرنطيقا - اجابة « بنعم » او « لا » ، انها قادرة على حالتين غير متواصلتين او مستمرتين ، احداهما ايجابية والاخرى سلبية ، واستخدام سمكة السفّن في الاسطورة هو - رغم انني لا اريد ان استفيض حد الاستنزاف للتشبيه - شبيه بالعناصر التي يمكن ان تستخدم في الحاسب الآلي الحديث (الكومبيوتر) ومن اجل حل مشكلات شديدة الصعوبة من خلال اضافة سلسلة من الاجابات بعضها بـ « نعم » وبعضها بـ « لا » .

ورغم انه من الخطأ والمستحيل من خلال وجهة نظر واقعية امبيريقية ان نعتبر سمكة ما قادرة على محاربة الريح ، فانه من وجهة النظر المنطقية يمكن ان نفهم لماذا يمكن استخدام صور مستعارة من الخبرة ووضعها في حالة نشاط ، وهذه هي اصالة التفكير الاسطوري ان يلعب دور التفكير التصوري : فالحيوان الذي يمكن ان يستفيد منه على انه عامل نشط ثنائي العمليات (1) binary operations

---

(١) يستخدم شتراوس هنا ايضا اللغة الخاصة بالحاسبات الالكترونية خاصة ما يستخدم في لغة الفورتران مثلا وتسمى بالفلوجارت flowchart والتي من خلالها تتحدد خطوات حل المشكلة من خلال مسارات مطلوبة توضع امامها كلمة « نعم » ومسارات غير مطلوبة توضع امامها كلمة « لا » (المترجم) .

كما قد اسميه ، يمكن ان تكون له علاقة من وجهة نظر منطقية مـع مشكلة لها طبيعة ثنائية ايضا ، فاذا كانت ريح الشمال تهب كل يوم خلال السنة ، فان الحياة تكون مستحيلة بالنسبة للجنس البشري ، ولكن اذا كانت تهب يوما واحدا كل يومين ، اي « نعم » في احد الايام و « لا » في اليوم الآخر ، وهكذا فان نوعا من المصالحة يكون ممكنا بين حاجات النوع البشري والظروف الموجودة في العالم الطبيعي .

وهكذا فانه من وجهة نظر منطقية ، هناك نوع من القرابة او الصلة بين حيوان كسمكة السفّن وبين طبيعة المشكلة التي تحاول الاسطورة حلها . والمشكلة ليست حقيقية من وجهة النظر العلمية ولكن كـان في امكاننـا ان نفهم هذه الخـاصية للاسطورة ، عندما وجدت السبرنطيقا والحاسبات الالكترونية في العالم العلمي وزودتنا بفهم للعمليات الثنائية والتي كانت قد استخدمت فعلا بطريقة شـديدة الصعوبة ومع اشياء او كائنات ملموسة من خلال التفكير الاسطوري ، وهكذا فانه ليست هناك حالة من الطلاق بين الاسطورة والعلم انها فقط الحالة الراهنة من التفكير العلمي التي اعطتنا القدرة على فهم ما هو موجود في هذه الاسطورة وقد كنا بالنسبة لها في حالة كاملة من العمى قبل ان تصبح فكرة العمليات الثنائية مألوفة بالنسبة لنا . والآن فانني لا اريدك ان تعتقد انني أضع التفسير العلمي والتفسير الاسطوري على أرضية متساوية ، ان ما أريد قوله هو ان عظمة وتفوق التفسير العلمي لا يكمن فقط في الأنجاز العملي والعقلي للعلم ولكن ايضا في الحقيقة التي تشع اكثر فاكثر وهي ان العلم قد اصبح قادرا على تفسير ليس صدقه الخاص حسب ، بل ايضا ما كان صادقا الى حد ما في التفكـير الاسطوري . والجـدير بالاهتمام هو : اننا أصبحنا شيئا فشيئا اكثر اهتماما بهذا الجانب الكيفي ، وان العلم الذي كان ينظر من نافذة كمية صرفه خلال القرن السابع عشر وحتى القرن التاسع عشر قد بدأ يحرص على أن يدمج في الصورة تلك الجوانب الكيفية للواقع ايضا ، وهذا سيمكننا دون شك من فهم العديد من الاشياء الموجودة في التفكير

الاسطوري ، والتي كانت عرضة للاهمال او النبذ في الماضي باعتبارها عبثية وبلا معنى . وهذا التيار سوف يقودنا الى الاعتقاد بانه فيما بين الحياة والتفكير لاتوجد تلك الثغرة المطلقة التي تم قبولها على أنها امر حقيقي خلال الثنائية (الفلسفة الخاصة) بالقرن السابع عشر ، واذا وصلنا الى الاعتقاد بان ما يحدث في عقولنا ليس شيئا مختلفا بطريقة اساسية او جـوهريـة عن ظواهر الحيـاة الاساسيـة نفسها ، واذا اهتدينا بعد ذلك الى الشعور بانه لا يوجد مثل ذلك النوع من الثغرة التي يستحيل قهرها بين النوع البشري من ناحية ، وكل الكائنات الحية ، ليس فقط الحيوانات ، بل والنباتات ايضا ، من ناحية اخرى ، فربما كان ذلك يعني أننا سنصل الى درجة من الحكمة ، دعنا نقول أنها اكثر من الدرجة التي نظن أنفسنا قد وصلنا اليها .



الفصل الثالث

ذوو الشفاه الأرنبية و التوائم

(انشقاق الاسطورة)



نقطة بدايتنا هنا ستكون هي : ملاحظة محيرة سجلهـا مبشر أسباني في بيرو ، هو الأب ب . ج . دي ارياجا P. J. De Arriaga في نهاية القـرن السادس عشر ، ونشرها في كتابه « ابادة الوثنية في بيرو » .

Extirpation de la idolatria del peru

(ليما ، ١٦٢١) ، فقد لاحظ انه كان يحدث في جزء معين من بيرو في ذلك الزمن ، وفي اوقات البرد القارس يقوم الكاهن باستدعاء كل السكان الذين عرف عنهم انهم قد ولدوا من خلال سحب اقدامهم اولا ، او ان لديهم شفة أرنبية ، أو كانوا من التوائم ، ويقوم باتهامهم بانهم المسؤولون عن ذلك البرد القارس ، لأنهم ، كما كان يقال ـ قـد اكلوا الملح والفلفل ، وكـانوا يُـؤمرون بـان يتوبـوا ويعترفـوا بخطاياهم .

والآن ، فان الربط بين التوائم والاضطراب في الطقس هو أمر مقبول ومنتشر في العالم ، بما فيه كندا [1] ، فمن المعـروف تمامـا انه عـلى شاطىء كـولومبيا البريطانية وفيما بين الهنود ، كان التوائم يمنحون قوى خاصة لاحضار الطقس الجيد ولطرد العواصف وما شابه ذلك ، على كل حال فـان هذا ليس هـو جانب المشكلة الذي أرغب في أن اوجه اهتمامي اليه هنا ، ان ما يثيرني حقا هو ان كل دراسي الاساطير على سبيل المثال السير جيمس فريزر الذي استشهد « بارياجا » في امثلة عديدة لم يتساءلوا لماذا ينظر الى الافراد ذوي الشفاه الارنبية وكـذلك التوائم على أنهم متشابهون في بعض الجوانب ، ويبدو لي ان النقطة الجوهرية في المشكلة هي ان نكتشف : لماذا ذوو الشفاه الارنبية ؟ ولماذا التوائم ؟ ولماذا يتم وضع ذوى الشفاه والتوائم معا ؟

ومن اجل أن نحلّ المشكلة علينا ـ كما يحدث احيانا ـ ان نقفز من امريكا الجنوبية الى امريكا الشمالية لأن أسطورةً من امريكا الشمالية هي التي سوف

---

(١) **يشير شتراوس دائما الى كندا باعتبار ان هذا الكتاب هـو سلسلة محاضـرات القيت بالاذاعة الكندية . (المترجم).**

تعطينا الدلالة (مفتاح اللغز) لاسطورة امريكا الجنوبية ، وقد لامني عديد من الافراد على هذا النوع من الاجراءات ، من خلال زعمهم ان الاساطير الخاصة بشعبٍ معين يمكن تفسيرها وفهمها فقط من خلال الاطار الثقافي الخاص بهذا الشعب فقط ، وهناك اشياء عديدة يمكنني ان اقولها خلال حديثي للاجابة عن هذا الاعتراض . في المقام الاول ،يبدو لي أنَّ من الواضح بدرجة كافية ـ كما تم تأكيد ذلك من خلال ما يسمى بمدرسة (بيركلي) في السنوات الاخيرة ـ ان سكان امريكا قبل كولومبس كانوا أكبر حجما مما افترض ان يكونوا عليه من قبل ، وحيث أنهم كانوا اكبر حجما فانه من الواضح ان هذا الجمهور الكبير كانوا على صلة ببعضهم البعض الى حد ما ، وان المعتقدات والممارسات والعادات ، اذا كان يمكنني أن أقول ، كانت تتسرب وتنتقل بينهم ، وكل مجموعة من السكان كانت دائما ، والى حد ما ، واعية بما يحدث لدى المجموعة الاخرى من السكان .

النقطة الثانية في القضية التي نضعها في اعتبارنا هنا هي ان الاساطير لم توجد في حالة عزلة في بيرو من ناحية وفي كندا من ناحية ثانية ، ولكن فيما بين هاتين الثقافتين يمكن ان نجد دائما الكثير من الاساطير المشتركة . وفي الواقع فان هذه الاساطير تعد اساطير امريكية عامة (شائعة في كل امريكا) اكثر من كونها اساطير شبْه متفرقة او موزعة على الاجزاء المختلفة للقارة .

والآن فان بين « التوبينامباس » Tupinambas (وهم السكان الهنود القدماء لساحل البرازيل ابان اكتشاف كولومبس للقارة) ، وكذلك بين هنود بيرو ، كانت هناك اسطورة خاصة بأمرأة نجح شخص شديد الحقارة في اغوائها بطريقة ماكرةوالنسخة المعروفة جيدا من الاسطورة سجلها الراهب الفرنسي اندريه تيفيت Andre Thevet في القرن السادس عشر ، وقد شرح لنا (ان المرأة المخدوعة ولدت بعد ذلك توأمين ، **واحد منهما ولد من الزوج الشرعي ، والآخر من الاب الذي اغوى المرأة ، وكان هو المخادع (المحتال) .**

فالمرأة كانت تذهب لمقابلة الاله الذي كان يمكن ان يكون زوجها ، وبينما هي

في طريقها يتدخل الشخص المخادع ويجعلها تعتقد انه هو الاله ، ومن ثم فقد حملت من هذا المحتال ، ثم بعد ذلك عندما وجدت زوجها الحقيقي حملت منه ايضا ثم ولدت بعد ذلك طفلين من التوائم ، وحيث ان هذا التوأم المزيف كان من اثنين من الاباء المختلفين ، وقد كانت لهما صفات وخصائص متناقضه ، احدهما كان شجاعا ، يذود عن الهنود ويدافع عنهم ويعطيهم السلع ، بينما كان الآخر (وهو من الشعب الابيض) جبانا مسؤولا عن عديد من الحوادث السيئة .

وقد حدث أننا وجدنا بالفعل الاسطورة نفسها في امريكا الشمالية ، خاصة في الشمال الغربي للولايات المتحدة وكندا ، وعلى كل حال فعند المقارنة مع النسخ (او الروايات) القادمة من امريكا الجنوبية ، فان الاساطير التي ظهرت في المناطق الكندية قد أظهرت اختلافين هامين : مثلا فيما بين قبائل الكوتيناي Kootenay الذين عاشوا في جبال « روكي » كان هناك اتصال جنسي واحد ترتب عليه ميلاد التوأم ، وقد أصبح أحدهما بعد ذلك هو الشمس والآخر هو القمر ولدى بعض الهنود الآخرين فيكولومبيا البريطانية من السلالة اللغوية السلاشيه ، لدى هنود طومسون واوكانا جان وجدت اختان قام بخداعهما شخصان ذوا مظهر براق ، وولدت كل أخت منهما ابنا ، ولم يكن الابنان في حقيقتهما من التوائم ، لان كل واحد منهما جاء من أم مختلفة ، وبما انهما قد ولدا في ظل الظروف نفسها ، (في الاقل من الناحية الاخلاقية والسيكولوجية) ، فانهما كانا الى هذا المدى مشابهين للتوائم .

هذه النسخ او الروايات ، من خلال وجهة النظر التي احاول اظهارها هي الاكثر اهمية ، فالنسخة السلاشية تضعف طابع البطولة لدى التوأم لانهما ليسا اخوة ، انهما فقط اولاد خؤولة (او خالات) ، وظروف ميلادهما هي المتقاربة فقط وكلاهما ولد نتيجة الخداع ، ولكن مع ذلك ، فان المقصد الاساس يظل هو نفسه ، لأنه رغم ان البطلين ليسا من التوائم الحقيقية ، فانهما قد ولدا من اباء متميزين ، حتى في الرواية الخاصة بامريكا الجنوبية ، كما ان لهما طبيعتين

متعارضتين ، وخصائص سوف تظهر في مسلكهما وفي سلوك سلالة كل منهما .

وهكذا يمكننا ان نقول انه في كل الحالات يكون الاطفال التوائم او الذين يعتقد انهم من التوائم ، كما في الرواية الكوتنية ، ذوي مغامرات مختلفة ، تهدف فيما بعد اذا كان يمكنني قول ذلك الى جعلهم يختلفون او الى نفي هذا التشابه بينهم .

وهذا الانقسام بين فردين كانا في البداية مُمثلين كتوائم ، سواء كانوا من التوائم الحقيقية او من المماثلين للتوائم ، هو خاصية مميزة لكل الاساطير سواء في امريكا الجنوبية أم امريكا الشمالية . ففي الروايات السلاشيه للاسطورة ، هناك تفصيل لافتٌ للنظر وشديدُ الاهمية ، وكما نذكر أن في هذه الرواية لم يكن هناك توائم البتة ، لانه كانت هناك اختان مسافرتان ، وكل منهما تطمح في ان تجد زوجا ، وقد اخبرتهما الجدة انهما سيمكنهما التعرف على زوجيهما من خلال كذا وكذا من الخصائص ، ثم بعد ذلك خدعهما اثنان من المحتالين الذين قابلوهما في الطريق واعتقدت كل واحدة منهما ، ان احدهما لابد وان يكون الشخص الذي عليها ان تتزوجه ، وقد قضى اربعتهم الليلة معا ،ثم ولدت كل امرأة بعد ذلك ابنا .

والآن بعد ان قضت الاخت الكبرى ليلتها التعسة في كوخ الشخص المخادع ، فانها تركت اختها الصغرى ، وذهبت لزيارة جدتها ، التي كانت احدى ماعز الجبل واحدى الساحرات ايضا ، وقد عرفت مقدما ان حفيدتها قادمة في الطريق فارسلت الارنب الجبلي ليرحب بها في الطريق ، وقد اختبأ الارنب الجبلي تحت قطعة من خشب الاشجار التي سقطت في وسط الطريق ، وعندما رفعت البنت ساقها لتعبر قطعة الخشب ، نظر الارنب الوحشي الى اعضائها التناسلية واطلق نكتة غير مناسبة تماما ، فشعرت البنت بالغضب الشديد وضربته بعصاها فشقت انفه ، وهذا هو السبب في ان الحيوانات من عائلة الارنبيات Leporine تكون مشقوقه او (مفلوجة) الانف والشفة العليا ، وهو مانسميه بذي الشفه الارنبيه (او القلم) لدى الافراد المصابين بالضبط بمثل هذه الخاصية التشريحية لدى

الارانب المنزلية والارانب الجبلية .

بمعنى اخر فان الاخت الكبرى بدأت بشق او بفلق جسم الحيوان ، واذا استمر هذا الشق الى النهاية اي اذا لم يتوقف عند الانف ولكنه استمر عبر الجسم الى الذيل ، فانها ـ هذه الاخت ـ سوف تحول فردا واحدا الى توأم ، اي فردين يكونان متماثلين او متطابقين تماما ،لان كلا منهما ،جزء من الكل وفي ضوء هذا ، فانه من الالهـام ان نكتشف ما هـو التصور الذي يفكـر به او يضمـره الهنود الامريكيون حول اصل التوائم ، وما وجدناه هو عقيدة عامة (بان التوائم قـد جاءوا من انقسام داخلي لسوائل الجسم التي تصبح اكثر صلابة بعد ذلك وتكوّن الطفل) ، ومثلا ،فان بين بعض الهنود في امريكا الشماليـة ، يحرم عـلى المرأة الحامل ان تستدير بجسمها بسرعة عندما تكون راقدة في حالة نوم ، لانها ان فعلت ذلك ، فان سوائل الجسم سوف تنقسم الى جزئين ومن ثم قد تلد بعض التوائم .

وهناك ايضا اسطورة لدى هنود كواكيوتل kwakiutlفي جزيرة:فانكوفر van couver يجب ان نذكرها هنا ، وهي تخبرنا عن فتاة صغيرة كانت مكروهة من جميع الافراد لانها كانت ذات شفة ارنبية ،، ثم ظهرت غولة ، ـ امرأة خارقة آكلة للحوم البشر ـ وسرقت كل الاطفال بما فيهم الفتـاة الصغيرة ذات الشفـة الارنبية ، ووضعتهم جميعا في سلة لكي تأخذهم الى بيتها وتأكلهم ، وكانت الفتاة الصغيرة التي اخذت اولا ، موجـودة في قاع السلة ، ونجحت هـذه الفتاة في شق السلة وفتحها بواسطة صدفة بحرية sea—shell كانت قد التقطتها من على الشـاطىء والسلة على ظهر الغولة ، وكانت الفتاة قادرة على النزول والجري اولا ، ثم نزلت من خلال اخراج قدميها اولا .

هذا الوضع الخاص للفتاة ذات الشفة الارنبية متماثل تمـاما مـع وضع الارنب الجبلي في الاسطورة التي ذكرتها من قبل ، فقد كان ـ ايضا تحت البطلة عندما اختفى تحت جذع الشجرة بينما هي تعبر طريقها ، انه بالنسبة لها يبدو كما لو كان في نفس الوضع بالضبط بالنسبة لها ، لو كان قد ولد منها وخرج منها بقدميه

اولا ، وهكذا فنحن نرى في كل هذه الاساطير علاقة فعلية بين التوائم من ناحية والولادة بالقدمين اولا ، او الاوضاع التي تكون ، لو تحدثنا مجازيا ، مشابهة لذلك من ناحية اخرى ، وهذا يوضح تماما تلك العلاقة التي بدأنا منها و التي لاحظها الاب ارياجا في بيرو بين التوائم والافراد الذين يولدون من اقدامهم اولا وحقيقة ان الشخص ذا الشفة الارنبية يدرك على انه توأمي المنشأ يمكن ان تساعدنا في حلّ مشكلة جوهرية تماما بالنسبة لعلماء الانثروبولوجيا الذين يعملون بصفة خاصة في كندا ، فلماذا اختار هنود الاوجيبوا ojibwa والمجموعات الاخرى من العائلة التي تتحدث اللغة الالجونكية لماذا اختاروا الارنب الجبلي على انه الاله الاعظم الذي يعتقدون فيه ؟ وقد طرحت تفسيرات عديدة منها ان الارنب الجبلي جزء هام وجوهري في غذائهم ومنها انه يجري بسرعة شديدة ومن ثم فهو يمثل بعض المواهب التي على الهندي ان يمتلكها ، وهكذا ولاشيء من هذه التفسيرات يقنعنا تماما ، ولكن اذا كانت تفسيراتي السابقة صحيحة ، فانه يبدو لي ان الاكثر اقناعا ان نقول :

١ ـ انه فيما بين عائلة القوارض ، فان الارنب الوحشي او الجبلي يُعَد اكبرها حجما ، وكلما زاد بروزه او ظهوره ، زادت أهميته ، ومن ثم يمكن أخذه في الاعتبار على انه ممثل لعائلة القوارض .

٢ ـ ان كل القوارض تبدو عليها خاصية تشريحية غريبة ، تجعل من الممكن النظر اليها عل انها توأمية المنشأ ، لانها جميعا مشقوقة جزئيا .

وعندما يوجد توائم ، او حتى اطفال كثيرون في رحم الأم ، تكون هناك في العادة الاسطورة النتيجة شديدة السوء ، فحتى لو كان هناك طفلان في الرحم فقط ، فانهما يبدآن في الشجار والتنافس من اجل تحديد من سيحظى بشرف الولادة اولا ، وواحد منهما ، الشرير منهما ، لن يتردد في ان يكتشف طريقا مختصرا من أجل ان يولد اولا ، بدلا من ان يتبع الطريق الطبيعي ، انه يشق جسد الأم كي يهرب منه . وهذا كما اعتقد ، هو التفسير لكون حقيقة الميلاد بالقدمين اولا يتم تمثلها مع الحقيقة التوأمية ، لانه في حالة التوائم يكون هناك الاستعجال

التنافسي الخاص بأحد الاطفال الذي يجعله يحطم الأم من أجل أن يكون الأول في الولادة والتوائم وكذلك إن الذين يولدون باقدامهم اولا هم نذر او بشارات لولادة خطرة او حتى يمكنني القول ، هم نذر لولادة بطولية ، وذلك لأن الطفل سوف يأخذ زمام المبادرة ويصبح من الابطال ، وفي بعض الحالات يكون بطلا قاتلا ،لكنه يقوم بانجاز مهام شديدة الاهمية ، وهذا يفسر لماذا كان يحدث في قبائل عديدة ان يُقتل التوائم وكذلك الاطفال الذين يولدون بسحب اقدامهم اولا .

ان النقطة الهامة في الواقع هنا هي ان كل الاساطير الامريكية ، بل ويمكن القول بانه في كل اساطير العالم يكون لدينا الالهة والكائنات الخارقة ، وهي تلعب ادوار الوسطاء بين القوى العليا والانسانية السفلى ، ويمكن تمثيلها باشكال مختلفة ، فلدينا مثلا شخصيات من نمط المسيح ولدينا التوائم السماوية ، ويمكننا ان نرى ان مكان الارنب الوحشي في الميثولوجيا الالجونكية هو بالضبط فيما بين المسيح أي الوسيط الفريد ، والتوائم السماوية ،انه ليس توأما لكنه مشروع توأم ، انه مازال شخصا كاملا ، لكن لديه شفة ارنبية ، انه في منتصف الطريق لأن يصبح توأما وهذا يفسر لماذا تكون في هذه الميثولوجيا للأرنب الجبلي طبيعة غامضة قد ارهقت المفسرين وعلماء الانثروبولوجيا ، فهو احيانا يكون الها شديد الحكمة يهتم كثيرا بوضع العالم في حالة من النظام ، واحيانا اخرى يكون مهرجا ساخرا ينتقل من حظ عاثر الى حظ اسوأ ، وهذا ايضا يحسن فهمه اذا فسرنا اختيار الهنود الالجونكيين للارنب الجبلي على انه فرد واقع بين حالتين من :

(١) حالة الالوهية الفردية المفيدة للنوع البشري .

(٢) حالة التوأم الذي يكون احدهما خيرا والآخر شريرا .

وفي حالة عدم حدوث الانقسام الكلي الى اثنين في حالة عدم التحول الى توأم ، فان الخاصيتين المميزتين المتعارضتين تظلان متكاملتين لدى نفس الشخص الواحد .



الفصل الرابع

متى تصبح الأسطورة تاريخا

المقال الحالي يعالج مشكلتين يواجههما علماء الانثروبولوجيا ، احدهما هي مشكلة نظرية ذات اهمية كبيرة ، لانه عندما ننظر الى المادة المنشورة في امريكا الشمالية وامـريكا الجنـوبية وكـذلك في أي مكان من العـالم ، تبدو لنـا المادة الاسطورية ذات نوعين مختلفين ، فاحيـانا يقـوم علماء الانثـروبولوجيـا بجمع الاساطير التي تبدو بشكل او بآخر مثل قطع الاقمشة المرقعة ، أي كما يمكنني القول ، مجموعة من القصص المتناثرة وضعت بعد بعضها البعض دون أي علاقة واضحة فيما بينها . بينما امثلة اخرى كما في منطقة فوبي Voupes في كولومبيا ، يكون لدينا مجموعة من القصص الاسطورية شديدة التماسك ، وكلها مقسمة الى مجموعة من الاقسام يتبع بعضها البعض في نظام منطقي تماما . ومن ثم لابد وان نطرح التساؤل : ماذا تعني مجموعة ما من القصص ؟ انهـا قدتعني شيئـين مختلفين ، فهي يمكن ان تعني ، مثلا ، ان النظام المتماسك كما في حالة الملاحم ، هو حالة بدائية (اولية) وانه عندما نجد الاساطير كعناصر مفككة ، فان هذا يكون نتيجة لعملية التدهور وسوء التنظيم ، هنا يمكننا ان نجد فقط عناصر مشتتة مما كان في البداية كلاً ذا معنى ، ويمكننا ان نفترض ان حالة التمزق ، كانت هي الحالة السابقة القديمة وان الاساطير قد وضعت معا في حالة نظام بواسطة بشر وفلاسفة حكماء بدائيين لا يوجدون في كل مكان ، ولكن فقط في بعض المجتمعات ذات الطبيعة الخاصة .

وعلى سبيل المثال نحن لدينا نفس المشكلة تماما في حالة الكتاب المقدس ، لأنـه يبدو وكـأن مادتـه الخام (الاصليـة) كانت مجمـوعة من العنـاصر غير المترابطة ، وقام بعض الفلاسفة العلماء بوضع هذه العناصر معا من اجل اخراج قصة متتابعة وسوف يكون من الهامّ تماما ان نكتشف بين البشر الذين هم دون مستوى الكتابة ، والذين درسهم علماء الانثـروبولوجيـا ، ما اذا كـان الموقف مشابها لما حدث مع الكتاب المقدس ام انه مختلف تماما . هذه المشكلة الثانية رغم انها مازالت نظرية ، الا انها ذات طبيعة اكثر عملية . ففي الزمن الماضي ، دعنا

نقول ، انه في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشـرين ، كانت المـادة الاسطورية يتم جمعها غالبـا بواسـطة علماء الانثـروبولوجيـا ، اي اناس من الخارج ، بطبيعة الحال وفي حالات عديدة وخاصـة في كندا، كـان لديهم بعض المعاونين من المواطنين ، ولأستشهدْ مثلا بحالة فرانز بواس Franz Boas الذي كان لديه مساعد من الكواكيوتل هو جورج هنت George Hunt (في حقيقة الامر لم يكن من الكواكيوتل تماما لانه كان قد ولد من أب من اسكتلندا وأم من تلنجيت) لكنه تمت تنشئته بين الكـواكيوتـل وتوحـد تمامـا مع ثقـافتهم) وبالنسبـة لقبائـل التسيمشيان Tsimchian كان مع بواس هنري تيت H. Tate الذي كان شخصا متعلما وكان « وليم بنيون » الذي كان متعلما من التسيمشيان مع ماريوس باربي ايضا ، وهذا التعاون من المواطنين تمّ تأمينه منذ البداية ، ولكن مع ذلك تظل الحقيقة هي ان هنت وتيت وكذلك « بنيون » ، كانوا يعملون تحت اشراف الانثروبولوجيين، اي انهم هم انفسهم قد تحولوا الى انثروبولوجيين ، بالطبع كانوا يعرفون أحسن القصص الاسطورية والتقاليد التي تخص عشيرتهم الخاصة وذريتهم الخاصة لكنهم مع ذلك كانوا مهتمين ايضا بجمع المعلومات الخاصة بعائلات اخرى وعشائر اخرى وما شابه ذلك .

وعندما ننظر الى ذلك الحجم الهائل من الأساطير الهندية ، كما هي موجودة في كتـاب بـواس وتيت « الاسـاطير التسيميـة » Tsimshian Mythologies او في النصوص « الكواكيوتيلية » التي جمعها هنت واشرف عليها ونشرها وترجمهـا بواس ، فسنجد طريقة التنظيم نفسهـا للمعلومات ، زاد او نقص ، لانهـا هي الطريقة نفسها التي عادة ما ينصح بها علماء الانثروبولوجيا . مثلا ، في البداية ، توضع الاساطير الكونية والأساطير الخاصة بنشأة الكون « التكوينية » ثم بعد ذلك ، وبشكل يتبع ذلك توضع القصص الاسطورية الخاصة بالتراث الاسطوري وتواريخ العائلة .

وقد حدث ان تلك العملية التي بدأها علماء الانثروبولوجيا ، قد انشغل بها

الهنود أُنفسهم من أُجل اغراض مختلفة ، منها مثلا ان يعلموا لغتهم واساطيرهم للاطفال في المدارس الابتدائية ، وهذا يعد امرا شديد الاهمية ، كما افهمه الآن ، وغرض آخر ، هو استخدام التراث الاسطوري لتوفير صفة الصدق في دعاواهم ضد الافراد البيض سواء كانت هذه الدعاوى اقليمية اوسياسية او ما شابه ذلك .

وهكذا فانه من المهم ان نكتشف ما اذا كان هناك فرق ، وما هي نوعيته ان وجد ، بين مظاهر التراث التي تمّ جمعها من الخارج وتلك التي تمّ جمعها من الداخل ، رغم انها تبدو كما لو كانت قد جمعت من الخارج ، وكما يجب ان اقول فان كندا محظوظة ، وذلك لأن الكتب الخاصة عن اساطيرها وتراثها الاسطوريّ ، قد تم تنظيمها ونشرها من خلال المتخصصين الهنود انفسهم ، وقد بدأ هذا مبكرا ، فهناك اساطيرا (او خرافات) فانكوفر التي نشرتها بولين جونسون قبل الحرب العالمية الاولى وهناك بعد ذلك بضعة كتب قدمها موريس باربار الذي لم يكن ، بالطبع ، هنديا على الاطلاق ، لكنه حاول ان يجمع المادة التاريخية وشبه التاريخية ويجعل من نفسه المتحدث الرسمي باسم اخبارييه (الرواة) informants من الهنود ، ولذلك فقد انتج ـ كما يجب ان نقول ، روايته الخاصة لتلك الاساطير .

والمثير للاهتمام الى حد كبير بعض الكتب مثل رجال ميديك Men of Medeek الذي نشر في « كتيمات » Kitimat سنة ١٩٦٢ والذي يفترض أن الرواية الحرفية التي جمعت من فم الزعيم ولتر رايت Walter Wright وهو زعيم من قبائل التسيما في منتصف نهر سكينا Sheena ، وقد جمعها شخص ما غيره ، باحث ميداني ابيض ، ولم يكن بالباحث المحترف ، وكذلك الحال بالنسبة للكتاب الاحدث والاكثر اهمية الذي كتبه الزعيم كيفيث هاريس K. Harris الذي كان زعيما من التسيما ايضا ونشره بنفسه سنة ١٩٧٤ . وهكذا فاننا نستطيع بمثل هذه النوعية من المادة ، ان نقوم بنوع من التجربة ، بان نقارن بين تلك المادة التي جمعها علماء الانتروبولوجيا وتلك المادة التي جمعها ونشرها الهنود أُنفسهم ، ويجب علي ان لا أُقول كلمة

« جمعها » في حقيقة الامر ، لأنه بدلا من ان يكون لدينا التراث الخاص بعائلات عديدة وعشائر عديدة وسلالات عديدة توجد معا وتتجاور مع بعضها البعض ، فان لدينا في حقيقة الامر بدلا من ذلك في هذين الكتابين ، تاريخ عائلة واحدة او عشيرة واحدة قام بنشره واحد فقط من سلالتها .

والمشكلة هي : متى تنتهي الاساطير ومتى يبدأ التاريخ ؟ وفي الحالة الجديدة تماما بالنسبة لنا ، الخاصة بتاريخ دون انجازات ، لا تكون هناك بالطبع وثائق مكتوبة ، هناك فقط التراث الشفاهي ، الذي يزعم في نفس الوقت بانه يمثل التاريخ .

والآن فانه لو قارنا بين هذين التاريخين ، ذلك الذي حصلنا عليه من منتصف نهر « سكينا » من خلال الزعيم « رايت » وذلك الذي كتبه ونشره الزعيم هاريس الذي هو من عائلة اعلى النهر ، من منطقة « هازلتون » ، لو قمنا بذلك لوجدنا بعض مظاهر التشابه وبعض مظاهر الاختلاف ، ففي رواية الزعيم « رايت » سوف نجد ما يمكن ان اسميه منشأ او اصل الفوضى او الاضطراب genesis of disorder ، فالقصة ككل تهدف الى تفسير لماذا كان على عائلة معينة او قبيلة معينة او سلالة معينة او جماعة من هذه السلالة ، بعد البدايات الاولى ، ان تقوم بالتغلّب على عديد من المحن والنكبات وعرفت فترات من النجاح وفترات من الفشل ، ثم اقتيدت بشكل متدرج نحو نهاية مأساوية ؟ انها حكاية شديدة التشاؤم ، في الواقع هي تاريخ الاضمحلال والافول ، اما في حالة الزعيم « هاريس » فهناك نظرة مختلفة تماما ، لأن الكتاب يبدو وكما لو كان موجها تماما لتفسير اصل النظام الاجتماعي ، الذي كان هو النظام الاجتماعي للفترة التاريخية ، والذي مازال مضمرا ، اذا كان علي ان اقول ذلك ، في الاسماء العديدة والالقاب والامتيازات ، التي يحصل عليها شخص معين ويحتل موقعا بارزا في عائلته او عشيرته ويجمعها من خلال اشكال الوراثة الشائعة حوله .

وهكذا فان الامر يبدو كما لو كان هناك تتابع متتال diachronic للوقائع يتم

اسقاطه بشكل متزامن على شاشة الحاضر من أجل اعادة التركيب قطعة فقطعة لنظام متزامن يوجد ويتم اظهاره من خلال جدول الاسماء والامتيازات الخاصة بفرد معين .

ان كلتا الحكايتين وكلا الكتابين شديدا الاقناع ويُعَدّانِ من الناحية الادبية من الاعمال العظيمة ولكن بالنسبة لعالم الانثروبولوجيا ـ فان قيمتهما الاساسية تكمن في اظهارهما لمجموعة من الخصائص المميزة لتاريخ يختلف تماما عن تاريخنا الخاص . فالتاريخ كما نكتبه نحن يقوم اساساً في واقع الامر على الوثائق المكتوبة ولكن في حالة هذين التاريخين اللذين ذكرناهما ، لاتوجد هناك وثائق مكتوبة او يوجد القليل منها ، والآن ، فان ما يثيرني عندما احاول مقارنة هاتين القصتين او التاريخين ، هو ان كليهما يبدآن بحكاية من الزمن الاسطوري ، أو التاريخي ، ولا اعرف ايهما ، وربما ساعدنا علم الآثار في حل المشكلة ، حيث كانت هناك مدينة كبيرة في اعلى نهر « سكينا » قرب « هازلتون » الحالية وقد سجلها « باربي » على ان اسمها تيفلهام Tevlaham وسجل كذلك الحكاية التي تروي عنها انها في واقع الامر نفس الحكاية في الكتابين ، انها تقول بان المدينة قد دمرت ، وان من تبقى من اهلها ارتحلوا من مكان لآخر وعاشوا حياة صعبة من التجوال عبر نهر سكينا .

هذه يمكن بالطبع ان تكون واقعة تاريخية ، ولكن اذا نظرنا عن قرب الى الطريقة التي يتم تفسيرها بها فاننا سوف نجد ان نمط الحكاية متشابه لكن التفاصيل تختلف . فمثلا ، طبقا للحكاية ، يمكن ان يكون هناك سبب او اصل كالقتال بين قريتين او بين مدينتين ، وهو قتال ينجم عن حالة تلبّس بالزنا ، ولكن يمكن ان تكون القصة اما ان الزوج قدقتل عشيق زوجته ، او ان الابناء قد قتلوا عاشق اختهم ، او ان الزوج قد قتل زوجته لأن لها عشيقا غيره ، وهكذا يمكنك ان ترى ان لدينا خلية تفسيرية او خلية مفسرة explanatory cell تكون بنيتها الاساسية متشابهة ، لكن مضمون الخلية ليس هو نفسه ويمكن ان يختلف ، وهكذا فان هذه تُعَدُّ ـ كما يمكنني القول ـ اسطورة صغيرة mini—Myth وذلك لانها شديدة القصر

وشديدة التكثيف ، لكنها مازالت تملك خاصية الاسطورة لاننا يمكن ان نلاحظ في ظل انواع مختلفة من التحويلات ، وعندما يتم تحويل عنصر معين فان العناصر الاخرى يجب ان يتم اعادة تنظيمها بما يتفق مع ذلك ، وهذا هو الجانب الاول من قصص تلك العشيرة الذي استرعى اهتمامي . الجانب الآخر الذي لفت انتباهي هو ان جوانب ذلك التاريخ قابلة للتكرار بدرجة عالية ، فنفس النمط من الوقائع يمكن ان يستخدم مرات عديدة من اجل تفسير مجموعة من الحوادث المختلفة : فمثلا ، من المثير للاهتمام انه في قصص التراث الخاصة لدى الزعيم « رايت » والتراث الخاص لدى الزعيم « هاريس » نجد حوادث متشابهة لكنها لا تحدث في نفس المنطقة ولا تؤثر في نفس الافراد ، وايضا من المحتمل الا تقع في نفس الفترة التاريخية .

ان ما نكتشفه خلال قراءتنا لهذين الكتابين هو ان ذلك التعارض ـ التعارض البسيط بين الاساطير والتاريخ والذي اعتدنا ان نصطنعه ـ ذلك التعارض ليس تعارضا حاسما ، وان هناك مستوى من العلاقة الوسيطة المشتركة بينهما .

ان الميثولوجيا سكونية ثابتة ، فنحن نجد نفس العناصر الاسطورية يتم دمجها كثيرا عدة مرات لكنها دائما في نسق مغلق ، ودعنا نقول ، في حالة تعارض مع التاريخ ، الذي هو بالطبع ، نسق مفتوح .

ان الطابع المفتوح للتاريخ يتم ضمانه من خلال الطرق العديدة التي من خلالها يتم تنظيم واعادة تنظيم الخلايا الاسطورية ، الخلايا المفسرة التي كانت اسطورية في الاصل ، انها تبين لنا انه من خلال استخدام نفس المادة ـ لان هذه المادة هي نوع من الوراثة المشتركة او الميراث المشترك لكل المجموعات وكل العشائر او كل السلالات ـ يمكن للمرء مع ذلك ان ينجح في الوصول الى بناء تفسير اصيل لكل منها .

ان ما هو مضلل في الحكايات التفسيرية الانثروبولوجية القديمة هو ان نوعا من الخليط الغريب كان يتم صنعه بين تراث ومعتقدات تخص جماعات اجتماعية

عديدة شديدة الاختلاف . وهذا جعلنا نفتقد رؤية الطابع الجوهري للمادة ، وهو ان كل قصة ذات نمط معين تخص جماعة معينة ، عائلة معينة ، سلالة معينة ، او عشيرة معينة وتحاول ان تفسر قدرها او مصيرها ، الذي يمكن ان يكون مكللا بالنجاح او مليئا بالمحن ، او ان هذه القصص تحاول تبرير وتفسير الحقوق والمزايا كما هي موجودة في الحاضر ، او تحاول ان تجد اساسا من الصدق للدعاوى الخاصة بالحقوق التي ضاعت منذ زمن . عندما نحاول ان نصنع تاريخا علميا ، هل نقوم فعلا بشيء علمي أم نقوم ايضا بمد احد ساقي اساطيرنا في الطريق الذي نحاول فيه صياغة التاريخ الحقيقي .

انه من المثير تماما سواء كنا في امريكا الشمالية او الجنوبية او حتى في اي مكان آخر من العالم ، ان ننظر الى الطريقة التي يستجيب بها أحد الافراد الذين يكون له بالأحقية او من خلال الوراثة تأويل معين للميثولوجيا او التراث الاسطوري الخاص بجماعته ، من المثير ان ننظر كيف يستجيب هذا الفرد عندما يستمع الى حكاية اخرى مختلفة يطرحها شخص آخر ينتمي الى عائلة مختلفة او الى عشيرة او سلالة مختلفة وتكون هذه الحكاية متشابهة الى حد ما ومختلفة الى حد ما .

والآن فانه من الممكن ان نعتقد باستحالة ان يكون تاويلان غير متشابهين حقيقيين في نفس الوقت ، ولكن ومع ذلك فانه يبدو انه يمكن قبولهما في بعض الحالات على انهما حقيقيان ، والاختلاف الوحيد الموجود هو ان أحد التأويلين يعتبر أحسن او اكثر دقة من الآخر ، وفي حالات اخرى ، يتم النظر الى التأويلين على انهما متكافئان في صدقهما وذلك لأن الفروق بينهما لا يتم ادراكها على انها كذلك .

ونحن لا نكون في حالة وعي كامل في حياتنا اليومية باننا في نفس الموقف بالضبط فيما يخص علاقتنا بتأويلات تاريخية مختلفة كتبها علماء تاريخ من مواقع مختلفة . نحن نوجه انتباهنا فقط الى ما هو متشابه اساسا ، ونهمل الفروق وفقا

للحقيقة القائلة بان الطريقة التي يقوم من خلالها كُتاب التاريخ بتصوير المـادة وكذلك طريقة تأويلها ، ليست هي بالضبط نفس الطريقـة ، وهكذا فـاذا اخذت تأويلين قدمهما اثنان من كُتاب التاريخ ذوي تقاليد عقلية مختلفة وميول سياسية مختلفة ولوقائع مثل الثورة الامريكية ، او الحرب الفرنسية الانجليزية في كندا او الثورة الفرنسية ، فلن يكون الامر بمثابة الصدمة لنا ، اذا وجدنا كل واحد منهما يخبرنا بأشياء مختلفة عن التي يخبرنا بها الآخر .

وهكذا فان انطباعي هو انه من خلال الدراسة الواعيـة لذلك التاريـخ ، بالمعنى العام للكلمة ، الذي يحاول المؤلفون الهنود المعاصرون ان يقدموه لنا عن ماضيهم ، ومن خلال النظر الى ذلك التاريخ ليس باعتباره تأويلا مليئا بالأوهام ، ولكن من خلال المحاولة شديدة الجدية وبالمساعدة التي يقدمها علم الآثار الذي يقوم بعمليات الترميم للمواد القديمة . ويحفر من اجل الكشف عن مواقع القرى التي اشارت اليها مصادر التاريخ ، ومن خلال محاولة اقامة مقاربات بقدر مـا يكون ذلك ممكنا بين التأويلات المختلفة ، نحاول ان نكتشف ما هو متفق حقيقة وما هو ليس متفقا ، ومن ثم يمكننا في النهاية ان نصل الى فهم احسن لمـاهية علم التاريخ في حقيقة الامر .

انني لست بعيدا عن الاعتقاد بانه في مجتمعاتنا الخاصة ، قد حل التاريخ محل الميثولوجيا ، وانه يقوم بنفس الوظيفة ، وانه في المجتمعات دون مستـوى الكتابة والتي لا توجد لديها اشكال الارشيف او المحفوظات التي توجد لدينا ، يكون هدف الميثولوجيا هو ان تضمن بقدر الامكان ان يظل المستقبل شديد الصلة فالقرب الكامل كما هو واضح غير ممكن بالحاضر والماضي ، وبالنسبة لنا ، على كل حال ، فان المستقبل يجب ان يكون دائما مختلفا بل واكثر اختلافا عن الحاضر ، وبعض الاختلاف يعتمد بالطبع على تفضيلاتنا السياسية ، ولكن ومع ذلك فان الثغرة الموجودة في عقولنا الى حد ما بين الميثولوجيا والتاريخ يمكن اختراقها من خلال دراسة مصادر التاريخ المختلفة وادراكها ليس باعتبارها منفصلة تماما عن الميثولوجيا ، ولكن على انها استمرار لها .

الفصل الخامس

الأسطورة والموسيقى



ان العلاقة بين الأسطورة والموسيقى التي اكدتها كثيرا في القسم الاول من كتابي « النييء والمطبوخ »The raw and the cooked وكذلك في القسم الاخير من كتابي « الانسان عاريا » L'Homme nu وليس هناك عنوان بالانجليزية لهذا الكتاب الإخير لأنه لم يترجم بعد ـ هذه العلاقة ربما كانت هي الموضوع الذي اثار سوء الفهم خاصة لدى المتكلمين بالانجليزية ، وايضا الفرنسية ، لانه تم الاعتقاد بان هذه العلاقة هي علاقة تعسفية تماما ، وشعوري هو انه على العكس من ذلك ، اي انه لا توجد فقط علاقة واحدة بين الأسطورة والموسيقى بل علاقتان احداهما خاصة بالتشابه او التماثل Similarity والاخرى خاصة بالتجاور او القرب Contingiuty وانهما ، في حقيقة الامر ، كانا بالفعل شيئا واحدا . وفيما يتعلق بالجانب الخاص بالتشابه ، فان رأيي الاساس هو انه بالضبط كما في حالة المقطوعة الموسيقية انه من المستحيل ان نفهم اسطورة ما على انها سلسلة متصلة ، وهذا هو السبب الذي يلزمنا ان نكون على وعي بانه اذا حاولنا ان نقرأ احدى الاساطير كما نفعل عندما نقرأ رواية او مقالا في جريدة يومية ، اي سطراً بعد آخر ، ومن الشمال لليمين ، فاننا لن نفهم الأسطورة ، وذلك لأنه يجب علينا ان نتفهمها ككل متكامل وان نكتشف ان المعنى الاساسي للأسطورة لا ينتقل من خلال سلسلة من الأحداث ولكن ـ اذا كان على ان أقول ذلك مَن خلال حزمة من الوقائع او الاحداث Bundle of events وذلك رغم ان هذه الوقائع او الاحداث قد تظهر في لحظات مختلفة من القصة ، ومن أجل ذلك فان علينا ان نقرأ الأسطورة ـ بشكل يزيد او يقل ـ كما نقرأ مقطوعة للاوركسترا ، ليس من خلال قراءة مقطع وراء الآخر ولكن من خلال فهمنا بانه لابد لنا ان نتفهم وان نفهم كذلك بان شيئا ما قد كتب في المقطع الاول أعلى الصفحة يكتسب معناه فقط من خلال نظرنا اليه باعتباره جزءا او قطعة مما كتب اسفله في المقطع الثاني والثالث ، وهكذا ، وهذا يعني ان علينا الا نقرأ فقط من اليسار الى اليمين ولكن ايضا وفي نفس الوقت ، ورأسيا ، من أعلى الى أسفل ، من القمة الى القاع ، وعلينا ان نفهم ان كل صفحة

هي « كل » وأنه من خلال معاملة الأسطورة كما لو كانت عملا أوركستراليا فقط ، كتبت مقاطعه واحدا بعد الآخر ، وأنه يجب ان نفهمه كعمل كلي . هكذا يمكننا ان نستخلص المعنى من الأسطورة .

لماذا وكيف حدث ذلك ؟ إن شعوري هو ان ذلك هو الجانب الآخر ، الجانب الخاص بالتجاور او القرب هو الذي يمكن ان يعطينا بعض هاديات الاجابة .

في حقيقة الأمر ، كان ذلك تقريبا خلال الزمن حدث فيه ان انتقل ـ ولا اقول انتهى او اختفى ـ التفكير الاسطوري الى الخلفية في الفكر الغربي خلال عصر النهضة والقرن السابع عشر ، في ذلك الوقت بدأت اولى الروايات في الظهور بدلا من تلك القصص التي كانت ما تزال قائمة على اساس النموذج الاسطوري ، وكان ذلك هو نفس الوقت تماما الذي ظفرنا فيه بظهور الاساليب الموسيقية العظيمة المميزة للقرن السابع عشر ، وكذلك بشكل اكبر للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، بالضبط كما لو كان الأمر هو ان الموسيقى قد غيرت تماما شكلها التقليدي من اجل ان تأخذ على عاتقها القيام بالوظيفة العقلية وكذلك الوظيفة الانفعالية الذي كان التفكير الاسطوري قد تخلى بشكل ـ يزيد او يقل ـ عن القيام بها في ذلك الوقت .

وعندما اتحدث عن الموسيقى فانه يجب عليّ ان احدد بشكل كيفيّ طبيعة المصطلح الذي اتحدث عنه ، فالموسيقى التي اخذت على عاتقها القيام بالوظيفة التقليدية للميثولوجيا ، لم تكن اي نوع من الموسيقى ، ولكنها الموسيقى كما ظهرت في الحضارة الغربية في بدايات القرن السابع عشر مع فرسكو بالدي Frescobaldi وفي بدايات القرن الثامن عشر مع باخ Bach وهي الموسيقى التي بلغت اوج تطورها مع موزارت وبيتهوفن وفاجنر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

وما احب ان افعله من اجل توضيح هذه النقطة هو ان اقدم مثالا ملموسا ، وسوف استقيه من رباعية فاجنر المسماة the Ring الخاتم [1] وواحد من اهم

---

(١) اسم هذه الرباعية اصلا خاتم النيبلونجن وهي ذات مغزى اجتماعي واضح وعلى الرغم من كل ما احتوت عليه من قصص عن المردة وعرائس البحر والآلهة والعمالقة والخاتم

الموضوعات الموسيقية في هذه الرباعية هو ما نسميه في فرنسا « موضوع نكران الحب » Le theme de la renunciation a L'amour وكما هو معروف فان هذا الموضوع يظهر اولا في « ذهب الراين » في اللحظة التي تقوم فيها عذارى الراين باخبار او البريخ انه يستطيع فقط انتزاع الذهب اذا قام بالتخلي عن كل انواع الحب الانساني ، وهذه الموتيفة او الفكرة الرئيسة المروعة تماما هي اشارة لالبريخ اعطيت في نفس اللحظة التي قال فيها انه سيأخذ الذهب ويتخلى تماما في التو عن كل انواع الحب ، كل هذا واضح تماما وبسيط ، انه المعنى الادبي للموضوع « تخلّي البريخ عن الحب » .

والآن ، فان اللحظة الثانية المتميزة والهامة تجيء عندما يعود نفس الموضوع الى الظهور في اوبرا « فالكيري » Valkyrie في ظروف تجعل من الصعب تماما ان نفهم لماذا يحدث ذلك . ففي اللحظة التي يكتشف فيها سيجموند أنّ سيجلنده هي اخته بعد ان وقع في حبها وبدأ الاثنان معا علاقة زنا بالمحارم ، وبسبب يتعلق بالسيف الذي كان منغرزا في الشجرة والذي كان على سيجموند ان ينتزعه منها ، في هذه اللحظة يبدأ موضوع التخلّي عن نكران الحب في الظهور ، وهذا يعد امرا غامضا الى حدٍ ما هنا ، لانه في تلك اللحظة لم يكن سيجموند على الاطلاق متخليا عن الحب بل كان يقوم بالعكس تماما ويبدا في معرفة الحب للمرة الاولى في حياته مع اخته سيجلنده .

المسحور والكنز المخبا ، فانها تنتمي الى صميم العصر الحديث ، والى القرن التاسع عشر على التخصيص ، والى بعض الاتجاهات في ثورة ١٨٤٨ على الأخص ، والدراما تتضمن ثورة على الذهب ، اي رمز الجشع وراس المال ، والذي يقيد العالم ويسبب كل الشرور فيه ، وهي تتضمن حديثا واضحا عن الخطيئة الثانية الكبرى في تاريخ البشرية ، وهي سرقة الذهب والاستحواذ عليه وهي خطيئة مازالت البشرية تعاني آثارها حتى اليوم (نقلا عن د. فؤاد زكريا ، الموسيقى الاوربية في القرن التاسع عشر ، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤ في كتاب محيط الفنون ، الموسيقى ، القاهرة ، دار المعارف ، بدون تاريخ .)

والظهور الثالث للموضوع نجده ايضا في « فالكيري » Valkyrie في الفصل الاخير ، عند « وتان » Watan ، ملك الآلهة ، بادانة اخته « برونهيلدة » والحكم عليها بنوم سحري طويل بينما تحيطها النار اثناء ذلك ، ويمكننا هنا ان نعتقد ان وتان يتخلى ا عن الحب لانه هنا يتخلى عن حبه لاخته ولكن هذا التفسير ليس مقنعا بشكل جيد .

وهكذا يمكنك ان ترى ان لدينا نفس المشكلة التي نجدها في الميثولوجيا ، اي لدينا موضوع وهو هنا موضوع موسيقى بدلا من ان يكون موضوعا اسطوريا ، هذا الموضوع يظهر في ثلاث لحظات مختلفة في القصة شديدة الطول ، مرة في البداية ، ومرة في المنتصف ، ومرة في النهاية واذا قمنا من اجل مناقشة هذه القضية بتحديد انفسنا بالاوبرا الاولى والثانية من رباعية « الخاتم » فان ما أود ان ابينه هو ان الطريقة الوحيدة لفهم عملية اعادة الظهور الغامضة هذه للموضوع رغم ان هذه الوقائع الثلاثة تبدو مختلفة هي ان نراكم او نضع هذه الوقائع الثلاث فوق بعضها البعض ثم نحاول ان نكتشف ما اذا كان من الممكن ان نعاملها كما لو كانت واقعة واحدة ، بل ونفس الواقعة ام لا .

يمكننا ان لاحظ انه في المناسبات الثلاثة كان هناك كنز يجب جذبه او انتزاعه من المكان الموجود فيه ، فهناك الذهب الذي يقبع في اعماق الراين ثم هناك السيف المغروز في شجرة ما ، والتي هي شجرة رمزية ، شجرة الحياة او شجرة الكون ، ثم هناك المرأة برونهيلدة ، الذي يجب ان يتم انتزاعها من وسط النيران ، ومن ثم فان تكرار حدوث الموضوع يمكن ان يوحي لنا ، في حقيقة الامر ، بان الذهب ، والسيف ، وبرونهيلدة ، كلها واحدة وهي نفس الشيء ، الذهب كوسيلة لانتزاع القوة والسيف كوسيلة لانتزاع الحب ، اذا كان يمكنني ان اقول ذلك .

وحقيقة ان لدينا نوعا من الالتحام بين الذهب والسيف والمرأة هو في حقيقة الامر التفسير الجيد لما نجده في الجزء الاخير من هذه الدراما والمسمى « افول الآلهة » او غروب الآلهة إذ انه من خلال « برنهيلدة» يعود الذهب الى الراين ، لقد

اصبحـا شيئا واحـدا ونفس الشيء ، لكن يتم النظر اليهمـا من خلال زاويتـين مختلفتين .

ونقاط اخرى من الحُبْكة تكون اكثر وضوحا هنا، فمثلا رغم ان البريخ يتخلّى عن الحب فانه فيما بعد وبفضل الذهب يكون قادرا على غواية امرأة تنْجب له طفلا هو « هاجن » وبفضل انتزاع « سيجموند » للسيف ينجب ولدا يصبح بعد ذلك هو « سيجفريد » .

وهكذا فان تكرار حدوث الموضوع يبين لنا شيئا لم يتم تفسيره في القصائد ، وهو ان هناك نوعا من العلاقة التوأمية بين « هاجان » الخائن و « سيجفريد » البطل وهما يوجدان في موازاة شديدة القرب تماما ، وهذا يفسر ايضا لماذا سيكون من الممكن ان سيجفريد وهاجان او بعبارة اخرى سيجفريد اولا بـالاصالة عن نفسه ثم بعد ذلك تحت قناع هاجان يحاول في لحظات مختلفة من القصة ان ينتزع « برونهيلدة » .

انني استطيع الذهاب في ذلك الى ابعد حد ، ولكن ربما كانت هذه الامثلة كافية لشرح ذلك التشابه في المنهج بين تحليل الاسطورة وفهم الموسيقى فعندما نستمع الى الموسيقى ، فنحن نقوم بالاستماع الى شيء ما ــ قبل كل شيء ــ يمضي من بداية معينة ويصل الى نهاية معينة ويتطور بمرور الوقت ، انني استمع الى سمفونية لها بداية ولها وسط ، ولها نهاية ، ولكن مع ذلك لن استطيع فهم اي شيء من هذه السمفونية ولن احصل على اي متعة موسيقية منها ما لم استطع السيطرة على ما استمعت اليه من قبل وما استمع اليه الآن وما لم اكن واعيا بالكلية الموجودة في الموسيقى ، اذا اخذت مثلا الصيغة الموسيقية الخاصة بالفكرة والتنويعات ، او اللحن وتنويعاته ، فانك ستدرك ذلك فقط . وتشعر به فقط اذا قمت بالاحتفاظ في ذهنك بالنسبة لكل تنويعة باللحن او التيمة التي استمعت اليها من قبل ، فكـل تنويعة لها مذاقها الخاص ، ثم قمت بطريقة لا شعورية بتركيبها على التنويعـة السابقة التي استمعت اليها .

وهكذا فان هناك عملية مستمرة من اعادة التركيب تحدث في ذهن المستمع للموسيقى او في ذهن المستمع لقصة اسطورية . انه ليس فقط تشابه عام ان الامر يبدو وبالضبط كما لو كان انه عند ابتكار الاشكال الموسيقية النوعية ، قامت الموسيقى باعادة اكتشاف الابنية التي كانت موجودة فعلا عند المستوى الاسطوري .

فمثلا ، من المثير ان نعرف ان الفوجه Fügue [1] كما تم صياغتها في عصر باخ كانت هي التمثيل الحقيقي لبعض الاساطير الخاصة التي كانت شائعة ، وفي ذلك النوع كانت هناك شخصيتان او مجموعتان من الشخصيات ، دعنا نقول ان احدهما كانت جيدة والاخرى سيئة ، رغم ان هذا تبسيط زائد للامور ، فالقصة التي تكشفها الاسطورة خاصة بمجموعة من الاشخاص تحاول الهروب من المجموعة الاخرى كما يكون لديك رقعة شطرنج عليها مجموعة بجانب مجموعة اخرى ، احيانا ما تلحق المجموعة (أ) بالمجموعة (ب) واحيانا تتمكن المجموعة (ب) من الهرب ، وهنا يكون لدينا ما نسميه بالفرنسية بالفاعل او الذات والاستجابة ونقيض القضية او الصوت المضاد (او الترنيمة التجاوبية) Antiphony يستمر عبر القصة حتى تختلط المجموعتان ويحدث الارتباك بينهما ويعد ذلك معادلا (او مكافئا) لعملية التلخيص Stretta لحالة الصراع في الفوجة ثم يقدم الحل النهائي او الذروة لهذا الصراع من خلال تزاوج او تصالح المبدأين اللذين كانا متعارضين كلية طيلة القصة .

ويمكن ان يكون هذا الصراع بين القوى العليا والقوى السفلى ، بين السماء والأرض، او بين الشمس والقوى السرية او الخفية ، او ما شابه ذلك ، والحل الأسطوري الخاص بالتزاوج مشابه في بنيته تماما للنغمات المتآلفة chords التي

---

(١) الفوجة هي احد اشكال الموسيقى البوليفونية تتعدد فيها الاصوات لكن يكون فيها صوت واحد غالبا على الاصوات الاخرى ويكون هذا الصوت الغالب هو الممثل الاكبر للموضوع او اللحن الاساسي وغالبا ما تكون هناك قصة معينة تحكيها الفوجة (المترجم) .

تاتي كي تكمل وتنهي المقطوعة الموسيقية وذلك لأن هذه النغمات تقدم ايضا تزاوجا او مصالحة بين انغام متعارضة ، لكنه في النهاية يتم احداث الوحدة بينها .

ويمكننا ان نبين ايضا انه توجد هناك اساطير ، او مجموعات من الأساطير قد تم تكوينها كما يتم تكوين السوناتة او السيمفونية او الروندو [١] rondo او التوكاتا [٢] Toccata او غير ذلك من الاشكال الموسيقية التي لم تبتكرها الموسيقى في الواقع ولكنها استعارتها بشكل لا شعوري من بنية الأسطورة .

وهناك قصة صغيرة احب ان اخبرك بها ، فعندما كنت اكتب « النيء والمطبوخ » قررت ان اعطي كل قسم من المجلد الطبيعة الخاصة باحد الاشكال الموسيقية وان اقوم بتسمية احد الاقسام (سوناتة) والآخر (روندو) وهكذا ، ثم ظهرت امامي اسطورة ، استطعت ان افهم البنية الخاصة بها بشكل جيد ، ولكنني كنت غير قادر على ايجاد الشكل الموسيقي الذي يتفق مع البنية الأسطورية ، ومن ثم فقد اتصلت بصديقي الموسيقار « رينيه ليبوفيتز » Rene Leibovitz وشرحت له مشكلتي فقد اخبرته ببنية الاسطورة ، كانت هناك في البداية قصتان مختلفتان تماما ، دون اية علاقة واضحة بينهما ، ثم بالتدريج تداخلت هاتان القصتان وامتزجتا ثم في النهاية اصبحتا تكونان موضوعا واحدا فقط ،وسألته ، ماذا يمكنك ان تسمى مقطوعة موسيقية لها مثل هذه البنية ؟ ففكر كثيرا واخبرني انه عبر التاريخ الكبير للموسيقى لا توجد مقطوعة موسيقية يعرفها لها مثل هذه البنية ، ومن ثم فلا يوجد اي اسم لها ، ولكن مع ذلك كان من المحتمل

---

(١) قطعة موسيقية يتكرر فيها النغم الرئيس ، وهناك الروندو البطيء الحركة والرندو السريع ، ولكن الطابع المميز دائما هو العودة دائما الى اللحن الاساسي بعد كل خروج عليه (المترجم) .

(٢) قطعة موسيقية معدة لاظهار البراعة في العزف على البيانو او الأرغن وهي ذات طابع مشرق وسريعة الحركة وتوجد لدى باخ خاصة في مجموع « كتيب الارغن » (المترجم) .

تماما ان توجد مقطوعة موسيقية لها مثل هذه البنية ، فبعد اسابيع قلائل ارسل لي صديقي قطعة موسيقية قام بتأليفها واستعار فيها البنية الخاصة للاسطورة التي شرحتها له .

والآن فان المقارنة بين الموسيقى واللغة هي امر مراوغ الى حدّ بعيد ، لأنه الى حد ما تَعد هذه المقارنة قريبة تماما ولكن في نفس الوقت يمكن ان تكشف هذه المقارنة عن فروق هائلة ، مثلا يخبرنا علماء اللغة المعاصرون بان العناصر الاساسية للغة هي الفونيمات phonemes اي تلك الاصوات التي نمثلها ـ بشكل خاطيء من خلال استخدامنا للحروف ، والتي ليس لها معنى في حد ذاتها ، ولكنها يمكن دمجها من اجل تمييز المعنى ، ويمكنك في الواقع ان تقول نفس الشيء بالنسبة للنوتات او العلامات الموسيقية ، فالعلامات الموسيقية أ ، ب ، جـ ، د [1] وغيرها ليس لها معنى في حد ذاتها ، انها مجرد علامات ولكن عملية الدمج بين هذه العلامات هو ما يخلق الموسيقى ، وكذلك يمكنك القول بشكل جيد، انهبينماتكون لدينا الفونيمات في اللغة كمادة اساسية فانه تحوى لدينا في الموسيقى ما يمكن ان اسميه في الفرنسية بالسونيم [2] Soneme وفي الانجليزية بالتونيم [3] Toneme ، هذا احد اوجه التشابه ، ولكن اذا فكرت في الخطوة الثانية او المستوى الثاني في اللغة فستجد ان الفونيمات يتم تركيبها معا كي تكون كلمات وان الكلمات بدورها يتم تركيبها كي تكون بعض الجمل ، ولكن في الموسيقى لا توجد كلمات فالمواد الاولية التي هي العلامات الموسيقية يتم تركيبها معا ولكن ما سوف تحصل عليه بحق هو (جملة) ، اي عبارة لحنية وهكذا فبينما توجد لديك في اللغة ثلاثة مستويات : الفونيمات التي تتركب لتكون الكلمات ، والكلمات التي تتركب لتكون

---

(١) او بالعربية لا ، س ، دو ، ري .
(٢) نسبة الى كلمة Son في الفرنسية اي صوت .
(٣) نسبة الى كلمة Tone في الانجليزية اي نغمة .

الجمل ، فانه في الموسيقى يكون لديك العلامات الموسيقية التي تماثل من الناحية المنطقية الفونيمات ، لكنك تفتقد مستوى الكلمة وتـذهب مباشـرة الى مستوى الجملة .

والآن يمكنك ان تقارن الميثولوجيا بالموسيقى واللغة ولكن هناك ذلك الفارق ففي الميثولوجيا لا توجد هناك فونيمات ، والمستوى الأولي هو الكلمات ، وهكذا فانك اذا اخذت اللغة كانموذج paradigm ، فان هذا الانموذج سيكون متكونا من : اولا : الفونيمات ، ثانيا : الكلمات ، ثالثـا : الجمل ، امـا في الموسيقى فلديـك المكافىء للفونيمات والمكافىء للجمل وليس لديك المكافىء للكلمات ، وفي الاساطير لديك المكافىء للكلمات والمكافىء للجمل ، لكن ليس لديك المكافىء للفونيمات ومن ثم يظل هناك في الحالتين احد المستويات مفقودا واذا حاولنا ان نفهم العلاقة بين اللغة ، والاسطورة والموسيقى فانه يمكنك ان تفعل ذلك فقط من خلال استخدامك للغة كنقطة انطلاق ، ثم يمكنك ان تتبين بعد ذلك ان الموسيقى من ناحية والميثولوجيا من ناحية اخرى ـ قد ظهرا ـ كلاهما ـ من اللغة ، لكنهماقامـا بالنمـو والنضج في اتجاهات مختلفة ، فالموسيقى تؤكد الجانب الصوتي الموجود بالفعل مندغما في اللغة بينما تؤكد الميثولوجيا جـانب الادراك ، اي جانب المعنى المـوجود ايضـا مندغما في اللغة ، لقد كان « فرديناند دي سوسير Ferdinand de soussure » هـو الذي قام باطلاعنا على ان اللغة تتكون من عناصر لايمكن فكها او حلهـا وهذه العناصر هي الصوت من ناحية والمعنى من ناحية اخرى .

وقد قام صديقي رومان جـاكوبسن Roman Jakobson بنشر كتـاب صغير عنوانه La Sonet le sens « الصوت والمعنى » باعتبارهما وجهي اللغة الذين لايمكن فصلهما ، فلديك الصوت ، والصوت له معنى ، ولايمكن ان يوجد اي معنى بدون صوت يعبر عنه ، وفي الموسيقى يكون عنصر الصوت هو السائد ، وفي الأسطورة يكون عنصر المعنى صاحب السيادة .

لقد حلمت منذ الطفـولة بان اصبـح مؤلفـا موسيقـا او في الأقل ، قـائد

اوركسترا ، لقد حاولت جاهدا وانا طفل ان اؤلف موسيقى خاصة لأوبرا كنت قد كتبت النص الخاص بها ورسمت المناظر الخاصة بها ، ولكنني كنت غير قادر تماما على فعل ذلك لأنه كان هناك شيء ناقص في عقلي ، انني اشعر بان الموسيقى والرياضيات فقط هي التي يمكن ان تكون فطرية ، واشعر كذلك بان المرء يجب ان يكون لديه جهاز وراثي خاص لكي يقوم باي منهما انني اتذكر جيدا انه بينما كنت اعيش في نيويورك اثناء الحرب كلاجيء كنت اتناول عشائي ذات مرة مع المؤلف الموسيقي الفرنسي العظيم داريوس ميلو Darius Milhaud وقد سالته اثناء ذلك متى ادركت انك سوف تصبح مؤلفا موسيقيا ؟ فشرح لي انه عندما كان طفلا وبينما كان ياتيه النوم في مهده ببطء ، كان يصغي ويسمع نوعا من الموسيقى التي لم يدرك اي علاقة بينها وبين الموسيقى التي كان يعرفها، ثم اكتشف بعد ذلك ان هذه الموسيقى كانت موسيقاه الخاصة .

ومنذ ان لفتت انتباهي حقيقة ان الموسيقى والميثولوجيا هما ، ان كان يمكنني ان اقول ذلك ، اختان ولدتهما اللغة ، وكلاهما تم جذبه بعيدا عن الآخر ، وكلاهما ذهب في اتجاه مختلف ، وكما في الميثولوجيا ، تذهب شخصية الى الشمال ، وشخصية اخرى الى الجنوب ولا يلتقيان ابدا بعد ذلك ، ومن ثم فانه بما انني كنت غير قادر على التأليف بواسطة الاصوات ، فربما اكون قادرا على التأليف بالمعاني .

هذا النوع من الموازاة حاولت ان اصوره ، لقد قلته فعلا لكنني لا ارغب في ان اوكده مرة اخرى ، ويمكن استخدامه فقط ، بقدر ما استطيع ان أعي الأمر، في حالة الموسيقى الغربية كما تطورت خلال القرون الحديثة ولكننا الآن نشهد شيئا من منظور منطقي يبدو مشابها تماما لما حدث عندما اختفت الاسطورة كنوع ادبي وحلت الرواية محلها ، نحن الآن نشاهد اختفاء الرواية نفسها ، ومن المحتمل تماما ان ما حدث في القرن الثامن عشر عندما اخذت الموسيقى بنية ووظيفة الميثولوجيا ربما كان ذلك يحدث الآن ، ويتمثل ذلك في ان ما يسمى بالموسيقى

المسلسلة Serial music او المسلسلات الموسيقية التي قامت بدورالرواية كجنس ادبي بينما تقوم الرواية بالاختفاء من الساحة الادبية .

فهرست

. . . .

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٩٦٢ لسنة ١٩٨٦

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة



الأسطورة والمعنى

يحتلّ مفهوم الأسطورة مركز الصدارة في هـذا الكتاب الصغير كما هو الحال في اغلب اعمال ليڤي شتراوس ان لم يكن كلها، فيحاول ليڤي شتراوس ان يحدد علاقة الاسطورة بالعلم، وعلاقتها بالتاريخ، وعلاقتهـا بالمـوسيقىٰ واللغة، ومـوقعها في سياق النسق الكلّي للفكر الانساني. لقد كان لهذا المفهوم وما زال سحره الخاص وجاذبيته في اعمال ليڤي شتراوس خاصة في الانثـروبولوجيـا البنويـة و (الفكر البـري) و (الطوطميـة) و (الأسطوريات) وغيرها.



دار الشؤون الثقافية العامة
وزارة الثقـافة والاعلام

١٩٨٦

السعر: دينار واحد